الأدب العربي في عصر ما قبل الإسلام

في نظرية الأدب والنقد

سلسلة المحاضرات ـ 6 ـ

د. خضر محجز

الأدب العربي
في عصر ما قبل الإسلام

اسم الكتاب: الأدب العربي في عصر ما قبل الإسلام
اسم المؤلف: د. خضر محجز
الطبعة الثانية مزيدة
غزة 2014
عطية للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى روح علم فلسطين الشهيد،

شهيد الأحزاب والجماعات،

التي تدعي كلها حب فلسطين،

وحرصها على تحريرها!!!!.

والفاتحة

الفصل الأول
الجزيرة العربية قبل الإسلام

أولاً: الموقع الجغرافي:

سميت الجزيرة العربية بهذا الاسم لأن الماء يحيط بها من جميع الجهات، باستثناء الشمالية: ففي الشرق والجنوب المحيط الهندي، وفي الغرب البحر الأحمر، فيما تطل الجهة الشمالية على العراق وبلاد الشام.

تنقسم الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقسام هي: الحجاز، ونجد، واليمن.

أما الحجاز فهو القسم الشمالي الغربي من الجزيرة العربية، وتطلق عليه بعض المصادر اسم تهامة، ويمتد على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر، ابتداءً من بلاد الشام (فلسطين) إلى اليمن، وتحده من الشرق سلسلة جبال السراة، في وسط الجزيرة تقريباً. ويضم الحجاز مناطق مكة والمدينة وجدة والطائف ووادي القرى وتيماء، ومناطق أخرى حولها كثيرة.

وأما نجد فهو القسم الشرقي من الجزيرة، ويعتبر القسم المركزي من بلاد العرب. وتبدأ حدوده غرباً من جبال السراة في الوسط، وتمتد إلى المحيط الهندي (الخليج

العربي) في أقصى شرق الجزيرة، ويضم صحراء النفود (الربع الخالي)، وأشهر مدنه القديمة اليمامة، أما أشهر مدنه الحديثة فالرياض والدمام والقطيف والظهران والإحساء، ومناطق أخرى كثيرة.

أما القسم الجنوبي فهو اليمن، ويضم القسم الجنوبي من الجزيرة، ويبدأ من جهته الشمالية من نجران الواقعة الآن في جنوب المملكة السعودية، وصولاً إلى مضيق باب المندب في الجنوب. أما من الغرب فيمتد اليمن من ساحل البحر الأحمر غرباً، وصولاً إلى مضيق هرمز في الشرق. أي أن اليمن كان يضم كل سواحل الجزيرة العربية من جهة الجنوب، والجنوب الشرقي، ويضم صنعاء وعدن والحديدة وحضرموت وعُمان، وما جاورها وحاذاها.

ثانياً: العرب العاربة والعرب المستعربة:

لأنه ليس للعرب تاريخ مكتوب، فقد اختلف الناس في أصلهم ونسبهم اختلافاً بيِّناً، وكل ما يعرف عنهم في هذا الصدد مصدره الرواية الشفاهية غير الموثوقة. ونحن نختار من هذه الروايات أشهرها وأكثرها جرياً على الألسنة، وإن كنا لا نتعرض له بتصديق أو تكذيب.

ينقسم العرب . حسب هذه الرواية . إلى قسمين رئيسيين هما: العرب البائدة، والعرب الباقية.

1. فأما العرب البائدة فهم الذين ورد ذكر بعضهم في القرآن الكريم، وأكد أنهم بادوا، فلم يعد لهم تاريخ ولا أثر ولا سلالة، مثل عاد في الأحقاف، وثمود في

الحِجْر، وطَسم وجديس في اليمامة، وأُميم في عُمان... إلخ"[1]. وهؤلاء هم الذين قال فيهم القرآن الكريم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزا﴾[2].

2. وأما العرب الباقية فيقسمونهم إلى قسمين هما: العرب العاربة، والعرب المستعربة.

أ. فالعرب العاربة هم عرب اليمن، الذين تنسبهم الرواية الشفاهية إلى (يعرب بن قحطان)، ويزعم النسابة أنه أصل اللغة العربية الفصحى. لكن الحقيقة أن في تاريخ هذا النسب تخليطاً كبيراً، لا يمكن الوثوق به. ورغم كل هذا التخليط الشفاهي، إلا أن الآثار من بعدُ قد أكدت أن اليمن كانت بالفعل مهد الحضارة القديمة، في هذا الجزء من العالم، حيث قامت دول ذات شأن، كالمعينية والسبئية والحميرية. "والمعينيون أبعد في القدم من قحطان، ولم يعرفهم مؤرخو العرب، ولا عرفوا الدولة السبئية. وهم يرمون . مع ذلك . تاريخ الحميرية بالسقم والتفكك، لأنهم كانوا في عصور متعاقبة وأحقاب متطاولة"[3].

---

[1]- انظر: مصطفى صادق الرافعي. تاريخ آداب العرب. الجزء1. ص39

[2]- مريم: الآية: 98

[3]- مصطفى صادق الرافعي. تاريخ آداب العرب. الجزء1. ص41

ب. وأما العرب المستعربة فهم عرب الشمال، الذين تنسبهم روايات أكثر وثوقاً[1] إلى إسماعيل عليه السلام. وإنما سُمّوا مستعربة، لأن إسماعيل "كان عبرانياً فاستعرب، بعد أن اتصل بجرهم الثانية . من ولد قحطان . وأصهر إليهم"[2].

يقول ابن عباس في هذا:

"... جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يتلفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت... أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى... فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى إذا جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً. ففعلت ذلك سبع مرات...

---

[1]- روى البخاري في صحيحه عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً". المجلد2. ص37

[2]- تاريخ آداب العرب. الجزء1. ص39

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا... فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه . أو قال: بجناحه . حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه... وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف... فشربت وأرضعت ولدها... فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم... فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم... فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم... وشبّ الغلام، وتعلم العربية منهم، وأَنفَسَهم وأعجبهم حين شبّ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم"[1].

1. فحديث (ارموا بني إسماعيل) هو ما يصحح عندي ـ إلى درجة القطع . أن العرب العاربة هم فعلاً من ولد إسماعيل عليه السلام.
2. أما رواية ابن عباس هذه عن نشوء زمزم، فترجح عندي ـ ترجيحاً مقبولاً ـ أن اللغة العربية الأولى أصلها اليمن. وما نزلتُ بهذه عن تلك، إلا لأننا لا نستطيع أن نعطي رواية موقوفة على ابن عباس رضي الله عنه درجة الصحة القطعية، وهي . في الغالب . مما سمعه من النسابة، الذين يستحيل عليهم أن ينقلوا كلاماً على هذه الدرجة من القدم بدقة[2].
3. وكل هذا يعني أن العربية التي وصلتنا هي العربية الشمالية، التي تطورت عن العربية الجنوبية، على ألسنة أبناء إسماعيل من بعد، وتقسمت لهجات متعددة، كان عليها أن تتحد مرة أخرى، في نموذج أرقى، يوحد الناطقين بها، على الأقل في المحافل الأدبية والأسواق، ويتبناها الجنوبيون إذا ما أرادوا منافسة

---

[1]ـ صحيح البخاري. مجلد2. ص142-143

[2]ـ يرجى العلم بأن في النص الكامل لهذه الرواية بعض الفقرات امن كلام تعليقات الرسول ﷺ، لكنها لا تتطرق إلى تاريخ نشوء اللغة العربية لدى ولد إسماعيل عليه السلام.

إخوانهم الشماليين في تلك المحافل. وهذا ما يفسر لنا لم كانت لغة عمرو بن معد يكرب هي نفسها لغة عمرو بن كلثوم، مع أن الأول يمني والثاني شمالي.

4. ولأن الله أرسل أنبياءه إلى أقوامهم بلسانهم، كما بين ذلك التنزيل العزيز في قوله: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾[1]؛ وإذا كان قوم إسماعيل عليه السلام الذين أرسله الله إليهم هم الجرهميون من قحطان، فإن علينا ألا نتعجب إذا ما قيل إن إسماعيل عليه السلام تكلم العربية، مع أن آباءه لم يتكلموها من قبل.

ثالثاً: أسطورة الأصل:

تميل أكثر الشعوب إلى اختلاق أساطيرها الخاصة عن النشأة الأولى، فإذا كنا قد رأينا كيف تنسب الأسطورة أصل الرومانيين إلى جد أول، هو الفتى الطروادي إينياس، الذي تروي الإنياذة أنا بقية الناجين من محرقة طروادة، بعد فتح الإغريق لها، ترى العرب العدنانيين يقصون في ذلك قصة. وإذا كنا قد صدقنا أن العرب العاربة تنحدر من معد بن عدنان بن إسماعيل، فليس من الضرورة أن نصدق تلك التقسيمات الفرعية عن فروع أبناء معد.

لكن ماذا يفيد تصديقنا أو تكذيبنا لتلك التقسيمات، إذا كان العربي الجاهلي يصدقها ويرويها على أنها حقيقة؟ فما يهمنا في دراسة الأدب أن ندرك أن هذا نص جمالي، تعتبره الثقافة العربية الجاهلية مقبولاً، وتتصرف وفقه. من هنا فنحن ننقل ما يرى الجاهلي أنه يمثله. فالجاهلي الشمالي يقول إن أصول العدنانيين تعود

---

[1]- إبراهيم. الآية: 4

إلى أربعة أبناء لنزار بن معد بن عدنان هم: مضر، وإياد، وربيعة وأنمار. ويروون الأسطورة الآتية:

لما حضرت نزار بن معدّ بن عدنان الوفاة "جمع بنيه، مضر وإياداً وربيعة وإنماراً، فقال: يا بني هذه القبة الحمراء . وكانت من أدم . لمضر، وهذا الفرس الأدهم والخباء الأسود لربيعة، وهذه الخادم . وكانت شمطاء . لإياد، وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه. فإن أشكل عليكم كيف تقتسمون، فائتوا الأفعي الجرهمي ومنزله بنجران. فتشاجروا في ميراثه، فتوجهوا إلى الأفعي الجرهمي. فبينا هم في مسيرهم إليه، إذ رأى مضرٌ أثر كلأ قد رُعي، فقال: إن البعير الذي رعى هذا لأعور. قال ربيعة: إنه لأزور. قال إياد: إنه لأبتر. قال أنمار: إنه لشرود.

فساروا قليلاً، فإذا هم برجل ينشد جمله، فسألهم عن البعير، فقال مضر: أهو أعور؟ قال: نعم. قال ربيعة: أهو أزور؟ قال: نعم. قال إياد: أهو أبتر؟ قال: نعم. قال أنمار: أهو شرود؟[1] قال نعم، وهذه والله صفة بعيري، فدلوني عليه. قالوا: والله ما رأيناه. قال: هذا والله الكذب. وتعلق بهم، وقال: كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته؟. فساروا حتى قدموا نجران. فلما نزلوا، نادى صاحبُ البعير: هؤلاء أخذوا جملي، ووصفوا لي صفته، ثم قالوا: لم نره.

فاختصموا إلى الأفعي . وهو حَكَمُ العرب . فقال الأفعي: كيف وصفتموه ولم تروه؟ قال مضر: رأيته رعى جانباً وترك جانباً، فعلمت أنه أعور. وقال

---

[1]- الأزور: هو الذي اعوجّ صدره. والأبتر: هو مقطوع الذنب. والشرود: هو الذي يتنقل بسرعة بين النواحي.

ربيعة: رأيت أحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدته، فعلمت أنه أزوَر، لأنه أفسده بشدة وطئه لازوراره. وقال إياد: عرفت أنه أبتر باجتماع بعره، ولو كان ذيّالاً لمَصَع به. وقال أنمار: عرفت أنه شرود لأنه كان يرعى في المكان الملتف نبته، ثم يجوزه إلى مكان أرق منه وأخبث نبتاً، فعلمت أنه شرود. فقال للرجل: ليسوا بأصحاب بعيرك، فاطلبه.

ثم سألهم [الأفعى الجرهمي] من أنتم؟ فاخبروه. فرحب بهم. ثم اخبروه بما جاء بهم. فقال: أتحتاجون إليّ وأنتم كما أرى!.

ثم أنزلهم، فذبح لهم شاة، وأتاهم بخمر، وجلس لهم الأفعي حيث لا يُرى، وهو يسمع كلامهم. فقال ربيعة: لم أرَ كاليوم لحماً أطيب منه، لولا أن شاته غُذيت بلبن كلبة. فقال مضر: لم أرَ كاليوم خمراً أطيب منه، لولا أن حَبْلتها نبتت على قبر. فقال إياد: لم أر كاليوم رجلاً أسرى منه، لولا أنه ليس لأبيه الذي يُدعى له. فقال أنمار: لم أرَ كاليوم كلاماً أنفع في حاجتنا من كلامنا . وكان كلامهم بأُذنه . فقال: ما هؤلاء إلا شياطين.

ثم دعا القهرمان، فقال: ما هذه الخمر، وما أمرها؟ قال: هي من حَبْلةٍ غرستها على قبر أبيك، لم يكن عندنا شراب أطيب من شرابها. وقال للراعي: ما أمر هذه الشاة؟ قال: هي عَنَاقٌ أرضعتها بلبن كلبة، وذلك أن أمها كانت قد ماتت، ولم يكن في الغنم شاةٌ ولدت غيرها. ثم أتى أمه، فسألها عن أبيه، فأخبرته أنها كانت تحت ملك كثير المال، وكان لا يولد له. قالت: فخفت أن يموت ولا ولد له، فيذهب الملك، فأمكنت من نفسي ابن عم له كان نازلاً عليه.

فخرج الأفعى إليهم، فقص القوم عليه قصتهم، واخبروه بما أوصى به أبوهم. فقال: ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر، فذهب بالدنانير والإبل الحمر، فسمي (مضر الحمراء) لذلك. وقال: وأما صاحب الفرس الأدهم والخباء الأسود فله كل شيء أسود، فصارت لربيعة الخيل الدهم، فقيل: (ربيعة الفرس). وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لأياد، فصار له الماشية البُلْقُ من الحَبَلَّق والنَقْد[1]، فسمي (إياد الشمطاء). وقضى لأنمار بالدراهم وبما فضل، فسمي (أنمار الفضل)"[2].

قلنا إنها أسطورة، لما نعلمه من بُعد عهد هذه القصة بالرواية. فأنّى لها تُحفظ على طول هذا الزمن، ثم تصير إلى العصر العباسي، فيدونها المدونون!. لكنها مع ذلك نص أدبي وإن لم يُعرف صاحبه. وما يهمنا هنا هو النص الأدبي لا غير.

رابعاً: الجاهلية جاهليتان:

يقسم المؤرخون الجاهلية إلى مرحلتين، جاهلية أولى، وجاهلية متأخرة. وما وصل إلينا من الجاهلية الأولى إلا مجموعة ترهات وأساطير، لا يثبت أكثرها أمام التمحيص العلمي. لذا فسوف نضرب صفحاً عن الحديث في الجاهلية الأولى، مكتفين بما لدينا من روايات مقبولة عن الجاهلية المتأخرة، التي نشأت فيها الآثار الأدبية الخالدة التي بين أيدينا. مع العلم أننا نتحدث . حتى الآن . عن نشوء اللغة .

---

[1]- الحبلق: غنم صغار لا تكبر. والنقد: جنس من الغنم قبيح الشكل.

[2]- الميداني. مجمع الأمثال. الجزء1. ص15-17

باعتبارها مجموعة أصوات مفهومة تعبر عن الفكر . قبل أن تنتشر الكتابة، في العصور الإسلامية التي تلت كل ذلك.

خامساً: زمن الجاهلية الذي نعنيه:

يختلف المؤرخون العرب في زمن الحقبة التي يسمونها جاهلية متأخرة، فالمكثر منهم يصل بها إلى مائتي سنة قبل الإسلام، والمقل يتوقف بها عند مائة سنة فحسب، فيما يتوسط آخرون فيقولون إنها تسبق الإسلام بمائة وخمسين سنة لا أكثر، كما يرى كل من بروكلمان والجاحظ، ويرضى به أستاذنا الدكتور شوقي ضيف[1]. وهذا هو ما نختاره، رغم أن الخلاف هنا لا يؤثر في تاريخية النصوص الأدبية الموجودة، باعتبارها كلها لا تتعدى المائة الأولى قبل الإسلام. وفي هذه الجاهلية نشأت الروائع الخالدة التي نحن بصدد دراستها.

سادساً: الجاهلية الكتابية:

قلنا إن أقصى ما يمكن قوله في نشوء اللغة العربية أن أصولها الأولى قادمة من اليمن، من حيث لا نعرف كيف ومتى. وقلنا إن إسماعيل تكلم عربية أولى، نعتبرها الأب الأول للغة الفصحى، التي ستتطور بعد أحقاب حتى تصل إلينا في هذا الثوب القشيب. أما كيف تطورت، وما هي سمات هذا التطور ومراحله، طوال أحقاب الجاهلية الأولى؟ فذلك أمر متروك لعلم الغيب، ولا نعلم منه شيئاً، خصوصاً مع هذا الانقطاع التاريخي الذي لم يستطعه التدوين.

---

[1]ـ انظر: كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. قسم1. ص114. وشوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص38

وإذا كانت كل هذه الآثار الأدبية الخالدة، قد وصلت إلينا في كتب مكتوبة؛ فإن هذا يستدعي أن تكون الأمة . صاحبتها . أمة كاتبة قارئة، لديها ما تكتبه، وتملك الوسائل لذلك. فمتى كان العرب كذلك، وقد وصفهم القرآن قبل الإسلام بالأمِّيَّة، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[1]؟. كما وصف الرسولﷺ، بالأمِّيَّة فقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾[2]. وأكد الرسولﷺ هذا المعنى في نفسه وفي أمَّتِه فقال: "إنّا أُمَّة أُمِّيَّة، لا نكتُب، ولا نحسُبُ"[3].

ولئن كانت الأمِّيَّةُ صفة ضرورية للرسول الخاتمﷺ، زيادة في إعجاز كتاب يبلّغه كما سمعه، لا كما قرأه من كتاب، فيتشكك المتشككون؛ لقد كانت على العكس من ذلك تماماً في حق الأمة: صفة سلب، تدل على أن القوم لا تاريخ لهم ولا حضارة ولا ثقافة، خارج الشفاهية غير المتثبتة والخاضعة للأهواء؛ لأن الحضارات تخلق . بطبيعتها . أدوات بقائها ونقلها واستمرار تواصلها. أي أن لو كان للعرب ما يستحق التدوين، إذن لكانوا تعلموا الكتابة ليحفظوه.

ومع ذلك، فلا يمكن الذهاب إلى أن لا أحد من هذه الأمة الأمّية كان يحسن الكتابة، فالتعميم لا ينفي الشذوذ، إن لم يكن يؤكده؛ فقد كان هناك في الأطراف أشباه ملوك، محتاجين إلى من يكتب لهم رسائلهم وأوامرهم، فيتخذوا لهم كُتّاباً. يدل على ذلك أن أقدم نقش كتابي، يدل على وجود كتابة في جزيرة العرب . بحروف

---

[1]. الجمعة. الآية: 2

[2]. الأعراف. الآية: 159

[3]. متفق عليه. انظر: ابن الأثير. جامع الأصول. جزء6. الحديث رقم: 4393. ص279

عربية قريبة مما نكتب اليوم . يعود إلى الجاهلية الأولى، وتحديداً عام 328 ميلادية. وهو حجر تم اكتشافه في مدفن امرئ القيس بن عمرو، ملك العرب، في النمارة بمنطقة حوران. أي قبل الإسلام بمائتين واثنتين وثمانين سنة فقط[1].

كما أكدت الروايات وأحداث صدر الدعوة الإسلامية: أنه كان، هنا أو هناك، في وسط الصحراء، أفراد قلائل تعلموا الكتابة، وفي الحواضر القليلة المتفرقة، كمكة والمدينة والطائف واليمامة. لكن كل هذه المشاهد الناتئة، ظلت متفرقة ومتباعدة وقليلة وغير دالة. ولكي نزيد ما قدمناه بياناً، ننقل من كتب التراث قصة (صحيفة المتلمس):

كان (طرفة بن العبد) وخاله (المتلمس) ينادمان عمرو بن هند، ملك الحيرة. فغضب منهما ذات مرة، وأوهمهما بأنه يريد أن يقدم لهما جائزة، وسلم كلاً منهما صحيفة موجهة إلى (المكعبر)، عامله في البحرين، ليتسلما منه الجائزة. وفي طريق عودتهما، قابلا شيخاً يتبرز، ويأكل من كسرة خبز في يده، ويقصع القمل من رأسه، كل ذلك في ذات اللحظة. فصاح به المتلمس ساخراً: تالله إن رأيت شيخاً أحمق وأضعف وأقل عقلاً منك!. فرد عليه الشيخ العجيب: وما رأيت من حمقى، وأنا أُخْرِجُ خبيثاً، وأدخل طيباً، وأقتل عدواً؟!. وأحمق مني وألأم، حامل حتفه بيمينه، لا يدري ما فيه. فتخوف المتلمس من كلامه، وقد أدرك أنه بين يدي شخص مميز، فدفع بصحيفته إلى غلام من أهل الحيرة، قابله في الطريق . بعد أن سأله إن كان يحسن القراءة . فإذا فيها: أما بعد، فإذا أتاك المتلمس بكتابنا هذا، فاقطع يديه ورجليه، وادفنه حيا. فقذفها المتلمس على الفور في نهر الحيرة. ثم قال

[1]- انظر: حنا فاخوري. الجامع في تاريخ الأدب العربي. المجلد1. ص53

لابن أخته: يا طرفة، معك والله مثلها. فرد عليه: كلا، ما كان ليجترئ عليّ بمثل ما اجترأ به عليك. فهرب المتلمس إلى الشام، وواصل طرفة طريقه، حتى وصل إلى المكعبر، فقطع يديه ورجليه ودفنه حياً[1].

إن الحديث هنا قريب، ولا يسبق نزول القرآن إلا بأقل من نصف قرن[2]. ثم إنه يتناول شاعرين فحلين، من الشعراء الذين يحمل الناس عنهم الشعر، ويروونه، جيلاً بعد جيل؛ بل إن أصغرهما هو أحد أصحاب المعلقات. ومع ذلك فها هما لا يحسنان القراءة، في لحظةٍ إحسانُ القراءة فيها يساوي الحياة. إننا نلاحظ أن المتلمس . رغم أنه هو راوي الرواية . لم يشعر بضرورة الاعتذار عن أمّيّته، وهو يبحث عن قارئ لصحيفته. أتعلم لماذا؟. لأنه لم يكن يرى في ذلك نوعاً من الاغتراب عن المحيط. وكيف يفعل وكل من حوله مثله أو أقل؟!.

ونتيجةُ كلِ هذا دالةٌ وذاتُ شأن كبير: "لم يعرف العرب في جاهليتهم إلا ما توارثوه بالرواية"[3]. ولم يكن لهم ما يفتخرون به، سوى الأشعار والأخبار الشفهية غير المدونة. وكل ما سيتم اعتباره مصدر فخر، إن هو إلا كلام شفهي سوف يتم تدوينه متأخراً، بعد أن تنشأ شخصية الأمة والدولة والحضارة: أي بعد نزول هذا الدين وبسببه.

بالدين حصل للعرب ملك وحضارة وشخصية: فبعد أن كانوا مجرد أمة متوحشة لا تستخدم الحجر إلا "لنصبه أثافيّ القدر، فينقلونه من المباني ويخربونها عليه

---

[1]- انظر: الميداني. مجمع الأمثال. الجزء1. ص399-401

[2]- توفي عمرو بن هند سنة 45 قبل الهجرة.

[3]- عبد السلام هارون. مقدمة تهذيب سيرة ابن هشام. ص7

ويعدونه لذلك"[1]، وبعد أن كانت حاجتهم للخشب محصورة في اتخاذه أوتاداً وعمُداً لخيامهم "فيخربون السقف عليه"[2]، وبعد أن كانت "طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران"[3]... بعد كل هذا، وبعد أن كانوا كل هذا؛ جاء محمدﷺ بالقرآن، من عند رب العالمين، فصنع من هذه الطبيعية الوحشية إنسانية وأمة ودولة وحضارة. وبدأت الكتابة والقراءة تتفشى في الأمّة الأمّيِّة، وجُمع القرآن في مصحف واحد، واتخذ بعض الناس صحفاً، يكتبون فيها ما يحفظون عن رسول اللهﷺ من سنته. ولا نصل إلى عهد الفاروقﷺ "حتى تصبح الكتابة جزءاً أساسياً من أعمال الدولة"[4].

لكن تدوين الآثار الأدبية، ونقلها من صدور الرواة إلى صفحات الكتب، لن يبدأ إلا في صدر الدولة العباسية، عندما تحتدم المواجهة الثقافية بين العرب والفرس، فيفتخر المسلمون الجدد على المسلمين الأوائل، بتاريخهم وحضارتهم وأدبهم، مما يؤدي إلى اشتعال الشعور القومي، لدى العلماء العرب، فيشمرون عن سواعدهم، للإقامة بالبوادي، وملازمة الأعراب الأقحاح، ليأخذوا عنهم ويسجلوا من ذاكرتهم الغضة مفردات اللغة والشعر والأخبار والأمثال[5].

---

[1]- مقدمة ابن خلدون. ص149

[2]- مقدمة ابن خلدون ص149

[3]- مقدمة ابن خلدون. ص149

[4]- شوقي ضيف. العصر الإسلامي. ص134

[5]- انظر: جامعة القدس المفتوحة. مصادر الدراسة الأدبية واللغوية. ص21

فإلى ذلك العصر، وإلى أولئك العلماء، يعود فضل وصول هذه الروائع إلى الأجيال اللاحقة.

سابعاً: ممالك الأطراف:

سابعاً.1: ممالك الجاهلية الأولى:

لقد سبقت العصر الجاهلي المتأخر بعض ممالك من أصول عربية، في أطراف الشام والعراق، من أهمها دولة الأنباط، التي انتهت قبل العصر الجاهلي بحوالي ستة قرون، ودولة تدمر التي بادت قبل الجاهلية بحوالي ثلاثة قرون. ودولة تنوخ بالحيرة.

فأما مملكة تنوخ فنشأت حلفاً من عدة عشائر، يقال إنها هاجرت من اليمن، بعد انهيار سد مأرب، وأُعلن (مالك بن فهم) ملكا عليها، وأخضعت لسطوتها أجزاء من العراق وشرق الجزيرة وسوريا وعُمان. ودامت حتى منتصف القرن الثالث الميلادي.

وأما مملكة تدمر فعاشت في نفس الفترة تقريباً، فعاصرت ملكتها الزباء الزباء (زنوبيا) آخر ملوك التنوخيين (جذيمة الأبرش) الذي قضى على يد الزباء، قبل أن تقضي هي على يد خليفته وابن أخته (عمرو بن عدي)، الذي سيعتبر الجد الأول للملوك اللخميين المناذرة في الحيرة.

ولأننا بين يدي مملكتين من ممالك الجاهلية الأولى، التي لا نعرف عن لغتها أخباراً واضحة موثوقة؛ فسوف ننقل من كتب الإخباريين ما قالوه عنهما، باعتباره أدباً، لا باعتباره تاريخاً.

يقول الميداني:

"كان جَذِيْمَة ملك ما على شاطئ الفرات. وكانت الزبّاء ملكة الجزيرة[1]، وكان جذيمة قد وترها بقتل أبيها. فلما استجمع أمرها، وانتظم شمل ملكها، أحبت أن تغزو جذيمة، ثم رأت أن تكتب إليه أنها لم تجد ملك النساء إلا قبحاً في السماع، وضعفاً في السلطان، وإنها لم تجد لملكها موضعاً، ولا لنفسها كفؤاً غيرك، فأقبل إليّ لأجمع ملكي إلى ملكك، وأصل بلادي ببلادك، وتقلد أمري مع أمرك، تريد بذلك الغدر.
فلما أتى كتابُها جذيمةَ، وقدم عليه رسلها، استخفه ما دعته إليه، ورغب فيما أطمعته فيه، فجمع أهل الحِجا والرأي من ثقاته . وهو يومئذ ببقية من شاطئ الفرات . فعرض عليهم ما دعته إليه وعرضت عليه. فاجتمع رأيهم على أن يسير إليها، فيستولي على ملكها. وكان فيهم (قصير) وكان أريباً حازماً أثيراً عند جذيمة، فخالفهم فيما أشاروا به... ثم قال لجذيمة: الرأي أن تكتب إليها، فإن كانت صادقة في قولها، فلتقبل إليك؛ وإلا لم تمكنها من نفسك، ولم تقع في حَبالتها، وقد وتَرْتَها وقتلتَ أباها... فلم يوافق جذيمة ما أشار به...

---

[1]- المقصود جزيرة الفرات شمال سوريا وغرب العراق.

ودعا جذيمة عمرو بن عدي . ابن أخته . فاستشاره، فشجعه على المسير... فقال قصير: لا يطاع لقصير أمر. فذهبت مثلاً.

واستخلف جذيمةُ عمروَ بن عديّ على ملكه وسلطانه... وسار جذيمة في وجوه أصحابه، فأخذ على شاطئ الفرات من الجانب الغربي. فلما نزل دعا قصيراً فقال: ما الرأي يا قصير؟ فقال قصير: ببقَّةَ خلَّفتُ الرأي... قال: وما ظنك بالزباء؟ قال: القول رداف، والحزم عثراته تُخاف...

واستقبله رسلُ الزباء بالهدايا والألطاف. فقال: يا قصير، كيف ترى؟ قال: خطب يسير في خطب كبير... وستلقاك الجيوش، فإن سارت أمامك، فالمرأة صادقة؛ وإن أخذت جنبتيك وأحاطت بك من خلفك، فالقوم غادرون بك، فاركب (العصا)[1] فإنه لا يشق غباره... وأني راكبها ومسايرك عليها.

فلقيته الخيول والكتائب، فحالت بينه وبين العصا. فركبها قصير. ونظر إليه جذيمة على متن العصا مولياً، فقال: ويلُ أُمِّهِ حزماً على متن العصا... وجرت به [العصا] إلى غروب الشمس، ثم نفقت، وقد قطعت أرضاً بعيدة، فبنى عليها برجا يقال له برج العصا...

وسار جذيمة، وقد أحاطت به الخيلُ، حتى دخل على الزبّاء، فلما رأته تكشفت... فقالت: يا جذيمة، أدأب عروس ترى؟... فقال جذيمة: بلغ المدى، وجف الثرى، وأمرَ غدرٍ أرى...

ودعت بالسيف والنِطع[2]، ثم قالت: إن دماء الملوك شفاءٌ من الكَلَب. فأمرت بطست من ذهب قد أعدته له، وسقته الخمر حتى سكر وأخذت

---

[1]- كانت العصا فرساً لجذيمة لا تُجارى.

[2]- النطع: كساء من جلد يفرش ليتلقى الدم، فلا يسيل على الأرض.

الخمر منه مأخذها، فأمرت براهشيه[1] فقُطعا. وقدمت إليه الطست . وقد قيل لها: إن قَطَرَ من دمه شيء، في غير الطست، طُلب بدمه. وكانت الملوك لا تُقتل بضرب الأعناق إلا في القتال، تكرمة للملك . فلما ضعفت يداه سقطتا، فقطر من دمه في غير الطست. فقالت: لا تضيعوا دم الملك. فقال جذيمة: دعوا دماً ضيعه أهله...

فهلك جذيمة... وخرج قصير... حتى قدم على عمرو بن عدي... فقال له قصير: أثائر أنت؟ قال: بل ثائرٌ سائر...

وكانت الزباء سألت كاهنة لها عن هلاكها، فقالت: أرى هلاكك بسبب غلام مهين غير أمين، وهو عمرو بن عدي، ولن تموتي بيده، ولكن حتفك بيدك، ومن قبله ما يكون ذلك. فحذرت عمراً، واتخذت لها نفقاً، من مجلسها الذي كانت تجلس فيه، إلى حصن لها داخل مدينتها... ودعت رجلاً مصوراً... فجهزته وأحسنت إليه، وقالت: سر حتى تقدم على عمرو بن عدي متنكراً، فتخلو بحشمه، وتنضم إليهم وتخالطهم، وتعلمهم ما عندك من العلم بالصور، ثم أثبت لي عمرو بن عدي معرفة، فصوره جالساً وقائماً وراكباً ومتفضلاً ومتسلحاً، بهيئته ولبسته ولونه...

فانطلق المصور حتى قدم على عمرو بن عدي، وصنع الذي أمرته الزباء، وبلغ من ذلك ما أوصته به، ثم رجع إلى الزباء بعلم ما وجهته له من الصورة على ما وصفت وأرادت...

فقال قصير لعمرو بن عدي: أجدع أنفي، واضرب ظهري، ودعني وإياها. فقال عمرو: ما أنا بفاعل، وما أنت لذلك مستحقاً عندي. فقال قصير: خل

---

[1]- الراهشان: هما وريدا اليدين.

عني إذن وخلاك ذم . فذهبت مثلاً . فقال له عمرو: فأنت أبصر. فجدع قصير أنفه، وأثّر آثاراً بظهره. فقالت العرب: لمكرٍ ما جدع قصيرٌ أنفه...

ثم خرج قصير كأنه هارب، وأظهر أن عمروا فعل ذلك به... فسار قصير حتى قدم على الزباء... فأمرت به، فأدخل عليها... فقالت: ما الذي أرى بك يا قصير؟ قال: زعم عمروٌ أني قد غررت خاله، وزينت له المصير إليك، وغششته، ومالأتك، ففعل بي ما ترين؛ فأقبلتُ إليك،وعرفت أني لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منك. فأكرمته، وأصابت عنده من الحزم والرأي ما أرادت. فلما عرف أنها استرسلت إليه، ووثقت به قال: إن لي بالعراق أموالاً كثيرة وطرائف وثياباً وعطراً، فابعثيني إلى العراق لأحمل مالي، وأحمل إليك من بزورها وطرائفها وثيابها وطيبها... فلم يزل يزين ذلك، حتى أذنت له، ودفعت إليه أموالاً، وجهزت معه عبيداً.

فسار قصير بما دفعت إليه، حتى قدم العراق، وأتى الحيرة متنكراً فدخل على عمرو فأخبره الخبر وقال: جهزني بصنوف البزّ والأمتعة، لعل الله يمكن من الزباء، فتصيب ثأرك، وتقتل عدوك. فأعطاه حاجته. فرجع بذلك إلى الزباء، فأعجبها ما رأت وسرها، وازدادت به ثقة. وجهزته ثانية، فسار حتى قدم على عمرو، فجهزه وعاد إليها.

ثم عاد الثالثة، وقال لعمرو: أجمع لي ثقات أصحابك، وهيئ الغرائر والمسوح، واحمل كل رجلين على بعير في غرارتين، فإذا دخلوا مدينة الزباء أقمتك على باب نفقها، وخرجتِ الرجالُ من الغرائر، فصاحوا بأهل المدينة، فمن قاتلهم قتلوه. وإن أقبلت الزباء تريد النفق، جلَّلْتَها بالسيف. ففعل عمرو ذلك، وحمّل الرجال في الغرائر بالسلاح. وسار يكمن النهار ويسير الليل.

فلما صار قريباً من مدينتها، تقدم قصير فبشّرها وأعلمها بما جاء به، من المتاع والطرائف... وسألها أن تخرج، فتنظر إلى ما جاء به... ثم خرجت الزباء فأبصرت الإبل تكاد قوائمها تسوخ في الأرض، من ثقل أحمالها، فقالت: يا قصير:

ما للجمال مشيُها وئيدا أجندلاً يحملن أم حديدا

أم صَرَفَاَناً تارِزاً شديدا؟[1]

فقال قصير في نفسه:

بل الرجالُ قُبّضاً قعودا

... فلما توسطت الإبلُ المدينةَ أُنيخت. ودل قصيرٌ عمروا على باب النفق الذي كانت الزباء تدخله . وأرته إياه قبل ذلك . وخرجت الرجال من الغرائر، فصاحوا بأهل المدينة، ووضعوا فيهم السلاح. وقام عمرو على باب النفق؛ وأقبلت الزباء تريد النفق، فأبصرت عمروا، فعرفته بالصورة التي صُورت لها، فنضت خاتمها . وكان فيه السم . وقالت: بيدي لا بيد ابن عدي. فذهبت كلمتها مثلاً. وتلقاها عمرو فجلَّلَها بالسيف وقتلها، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها، وانكفأ راجعاً إلى العراق"[2].

---

[1]- التارز: هو كل قوي صلب. والصرفان: هو الموت. المنجد.

[2]- الميداني. مجمع الأمثال. الجزء1. ص233-237

سابعاً.2: ممالك الجاهلية المتأخرة:

ممالك أطراف الجزيرة العربية في العصر الجاهلي أربع، ثلاث بالشمال ورابعة في الجنوب. ففي الشمال الحيرة في أطراف العراق، والغساسنة في أطراف الشام، وكندة بينهما وتنازعهما. وفي الجنوب مملكة الفرس باليمن.

فأما مملكة كندة فبادت قبل الإسلام بقليل، على يد بني أسد حين قتلوا آخر ملوكها حجر بن الحارث، أبا امرئ القيس الشاعر الضليل.

وأما مملكة الحيرة فقد انهارت في بدايات البعثة النبوية، بعد أن غضب كسرى على عامله النعمان بن المنذر وقتله. وسوف يأتي الحديث عنها عند كلامنا على يوم ذي قار، إن شاء الله.

وأما مملكة الغساسنة فقد أدركت الإسلام وانتهت على يديه، وأسلم آخر ملوكها (جبلة بن الأيهم) في زمن عمر بن الخطاب﵁ قبل أن يرتد ويلحق بالإمبراطورية البيزنطية.

أما المملكة الفارسية باليمن، فقد نشأت بسبب استنجاد اليمنيين بالفرس لمقاومة الاحتلال الحبشي . أيام (سيف بن ذي يزن) . فتحرروا من أبناء (أبرهة)، ليقعوا تحت نير ولاة كسرى، إلى أن يأتي الإسلام فيسلم آخرهم (باذان)، وتدخل اليمن في عهد جديد.

ثامناً: قبيلة قريش والبيت الحرام:

هذا هو النسب الزكي لرسول اللهﷺ به نبدأ، وبه نتزكى، بين يدي الحديث عن قريش:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة... من سلالة مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان بن إسماعيل عليه السلام.

والنضر بن كنانة هذا هو قريش، أي هو جدّ كل من يقول أنا قرشي: فمن كان من ولده فهو قرشي، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي. وقيل إن فهر بن مالك هو قريش، فمن كان من ولده فهو قرشي، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي[1]. والأول أصح، لما رواه الأشعث بن قيسرضي الله عنه قال:

"قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فِي نَفَرٍ مِنْ كِنْدَةَ، لا يَرَوْنِي إلا أَفْضَلَهُم، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَزْعُمُ أَنَّكُمْ مِنَّا. قَال: نَحنُ بَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَة، لا نَقْفُوا أُمَّنَا وَلا نَنْتَفِي مِنْ أَبِينَا. فَقَالَ الأَشْعَثُ: وَاللَّهِ لا أَسْمَعُ بِرَجُلٍ نَفَى قُرَيْشًا مِنَ النَّضْرِ إلا جَلَدْتُهُ الْحَدّ"[2].

وقد كان سبب هذا الظن من الأشعث أن العباس ابن عبد المطلب وربيعة بن الحارث، كانا تاجرين؛ فكانا إذا ساحا في أرض العرب فسئلا عن نسبهما قالا:

---

[1]- انظر: ابن كثير. البداية والنهاية. الجزء الثاني. دار الفكر. بيروت. 1978. ص200

[2]- البداية والنهاية. الجزء الخامس. ص73

نحن بنو آكل المرار: وذلك أن آكل المرار كان ملكاً من ملوك كندة القحطانية، فيحب العباس والحارث أن يتعززا بانتسابهما إليه في بلاد الغربة. فبيّن رسول اللهﷺ لوفد كندة ذلك، قائلاً: ناسبوا بهذا النسب العباس ابن عبد المطلب وربيعة بن الحارث[1].

وإنما سمي أبناء النضر بن كنانة قريشاً، بعد أن جمعهم قصي بن كلاب، من أطراف مكة، ووحدهم، وأسكنهم البيت الحرام. فقريش من التقريش: أي التجميع.

ومنذ ذلك الحين لا تزال العرب تعتبر قريشاً أشرف القبائل، فهم سدنة البيت الحرام، وهم الذين يملكون مفاتيح الكعبة، ويتولون زعامة الحج وقيادة الناس في أداء مناسكه. هذا وقد ظلت القبائل قبل قريش دهراً تتصارع على سدانة البيت. ونحن نعلم أن أول من تولى سدانة البيت كان إسماعيل عليه السلام، كما مر بنا في حديث زمزم، حين نزلت جرهم على شرط هاجر في قبولهم بحقها في الماء، وأنهم مجرد جيران لها.

وبعد إسماعيل . عليه السلام . كان من الطبيعي أن يتولى أبناؤه هذا الشرف. وقد حدث ذلك بالفعل، إلى أن غلبهم أخوالهم من بين بني جُرهم عليه، من بعد، فتولوا هم السدانة، وظلت فيهم حينا من الدهر، إلى أن نهضت خزاعة لما نهضت له جرهم من قبل، وانتزعته من يدها. وإذ استحر القتل في الفريقين، وأيقنت جرهم أنها مغلوبة، فقد ألقت كل ما لديها من كنوز الكعبة، في بئر زمزم، ثم ردمتها وأخفت معالمها.

---

[1]- انظر: البداية والنهاية. الجزء الخامس. ص72

تولت خزاعة إذن حكم مكة وسدانة البيت، وقامت على ذلك دهراً طويلاً، إلى حين أراد الله أن يعود قصي بن كلاب بن مرة . من سلالة إسماعيل . فيستعيد منهما شرف آبائه التليد.

وكان قصي بن كلاب هذا قد سمي قصياً، لأنه نشأ بعيداً عن وطنه، الذي مات فيه أبوه، في كنف أخواله وزوج أمه من قضاعة. فلما كبر أعلمته أمه بنسبه الشريف، وحقوقه المهضومة، وحببت إليه أن يكافح لاستعادتهما. فسمع منها، وقدم مكة، وتزوج من ابنة رئيسها الخزاعي. فلما مات صهره وجد الفرصة سانحة لما أراد، خصوصاً وقد كثر نسله، فخاض حربه، مستعيناً بإخوته لأمه، ومن أطاعه من قبائل العرب، فتمكن من هزيمة خزاعة وانتزاع السدانة والزعامة منهما. وجمع كل بطون قريش المتفرقة وأعلن نفسه ملكاً عليهم، جامعاً بذلك بين الزعامتين السياسية والدينية . الملك والسدانة . وبنى داراً لمناقشة قضايا الناس والفصل فيها سماها دار الندوة، وكان بابها يفتح على إلى المسجد الحرام[1].

أنجب قصي بن كلاب أربعة أبناء، هم: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبدا. ولأن عبد الدار كان هو البكر، فقد كان من الطبيعي أن يرث زعامة الأب. ورغم أن هذه الزعامة دامت لعبد الدار طوال حياته، إلا أن موته فتح الطريق أمام أبناء أخيه عبد مناف، ليطالبوا بنصيبهم من ميراث السيادة؛ فاندلعت الخلافات بين أبناء العمومة، حتى أوشكت الحرب أن تدور بينهم. وبعد تدخلات عديدة ومحاكمات، تم الاتفاق بينهم على إعادة توزيع التركة، بالطريقة الآتية: "أن تكون

[1]- انظر: البداية والنهاية. الجزء الثاني. ص205-207

الرفادة والسقاية لبني عبد مناف، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار. فانبرم الأمر على ذلك واستمر"[1].

وهكذا تولى هاشم أغلب ما كان يتولاه جده قصي، ثم أورث ابنه عبد المطلب زعامته من بعده. وقام عبد المطلب بالمهمة خير قيام، واشتهر ذكره بين العرب، خصوصاً بعد أن أعاد حفر زمزم، فدانت له قريش بما دانت لجده قصي: زعامة سياسية وروحية وشرفاً شخصياً، إلى أن حدثت حادثة الفيل.

تاسعاً: حادثة الفيل:

كان أبرهة الأشرم عاملاً للنجاشي على اليمن. فأراد أن يصرف العرب عن الكعبة، فبنى كنيسة كبيرة، سماها القُلَّيس، وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاماً وأحجاراً وأمتعة عظيمة، وركب فيها صلباناً من ذهب وفضة، وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس، وجعل ارتفاعها عظيماً جداً واتساعها باهراً. وأرسل إلى سيده النجاشي يبشره بذلك. وعلمت العرب بما فعل أبرهة، وغرضه من ذلك، فغضبوا، حتى خرج أحدهم فأتى القليس، فأحدث فيه. فلما بلغ ذلك أبرهة أقسم أن يسير إلى البيت الحرام فيهدمه. ثم سار إلى مكة بجيش عظيم يتقدمه الفيل. وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقا عليهم، وتعرضوا له يقاتلونه في طريق سفره. لكنه كان يهزمهم، لكثرة جيشه واستعداداته. وسار معه رجل من ثقيف يقال له أبا رغال، يدله على الطريق إلى مكة. لكن أبا رغال مات بالطريق، فرجمت قبره العرب. وقد قال جرير، فيما بعد، يهجو خصمه الفرزدق:

---

[1]- انظر: البداية والنهاية. الجزء الثاني. ص209

إذا مات الفرزدق فارجموه كرجمكمو لقبر أبي رغالِ

فلما نزل أبرهة قريباً من مكة، بعث أحد قادة جيشه فساق إليه أموال قريش وغيرهم، فيها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم. وهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك. وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وقال له: سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت. فإن هو لم يرد حربي فائتني به.

فانطلق معه عبد المطلب، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته، فنزل عن سرير الملك وجلس معه على بساطه، ثم سأله حاجته. فطلب منه عبد المطلب أن يرد عليه إبله. فرد عليه أبرهة: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني. أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك، قد جئت لأهدمه، لا تكلمني فيه؟. فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه.

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في رؤوس الجبال. ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ينشد:

لاهُمّ إنّ العبد يمــنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبنَّ صليبُهم ومِحالُهم غدواً مِحالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمرٌ ما بدا لك

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة. فلما وجهوا الفيل إلى مكة برك ولم يتقدم. فأخذوا يضربونه بالحديد ليقوم، فأبى. فوجهوه إلى جميع الاتجاهات فأطاعهم. فأعادوا توجيهه إلى مكة فأبى عليهم. وأرسل الله عليهم الطير الأبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلتهم كعصف مأكول. وخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك، على كل منهل. وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة اتبعها قيح ودم، إلى أن وصلوا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه[1].

[1]- انظر: ابن كثير. البداية والنهاية. الجزء الثاني. ص170-173

الفصل الثاني
في الشعر الجاهلي

أولاً: في قضية الانتحال:

لكل ما سبق، ولعدم تفشي الكتابة في عصور الجاهلية، فقد ذهب عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين . مع أستاذه مرغليوث . إلى إنكار وجود الكتابة، بالكلية، في جزيرة العرب قبل الإسلام، بل إلى إنكار وجود هذه اللغة العربية التي نتكلمها اليوم، باعتبار أن القوم إنما كانوا يتكلمون لغتين مختلفتين: فعرب اليمن القحطانيون لهم لغة "غير لغة القرآن... [كما أن] قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة، قبل أن يظهر الإسلام فيقارب بين اللهجات المختلفة"[1]؛ ورتب العميد على ذلك نتيجة في منتهى الخطورة: انتحال الشعر الجاهلي، باعتباره مجرد شعر ألفه شعراء في العصر الأموي أو العباسي، ونسبوه إلى آخرين عاشوا في زمن ماضٍ.

ونظراً لتصدي علماء الأزهر والمثقفين، لآراء الدكتور طه حسين، التي ضمها كتابه المشهور (في الشعر الجاهلي)؛ فقد اعتُبر الكتاب في حكم الممنوع،

---

[1]- طه حسين. في الشعر الجاهلي. ص33

وأحجمت دور النشر عن طباعته، مرة أخرى، إلى أن قامت مجلة (القاهرة) بإعادة نشره كاملاً، انتصاراً منها لحرية الرأي. ومن هذا النص نقتطف قول العميد:

"والنتيجة لهذا البحث كله تردنا إلى الموضوع، الذي ابتدأنا منه منذ حين؛ وهو أن هذا الشعر . الذي يسمونه الجاهلي . لا يمثل اللغة الجاهلية، ولا يمكن أن يكون صحيحاً... لم يقله شعراؤها، وإنما حُمل عليهم بعد الإسلام، لأسباب مختلفة"[1].

ورغم أننا ذهبنا إلى عدم شيوع الكتابة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، إلا أننا، وإحقاقاً للمنهج العلمي، لا نستطيع إنكار وجود أفراد، هنا أو هناك، يكتبون ويقرأون . كما بيّنا في سطور سابقة . كما لا ننكر وجود لغة واحدة رسمية، هي لغة قريش، يكتب بها الشعراء قصائدهم، بغرض روايتها عنهم وشيوعها، والمناظرة بها في الأسواق، كما تخبرنا بذلك الرواية الصحيحة. والنتيجة المنطقية، لكل ذلك، أن شعر العرب كان "فناً مستوفياً لأسباب النضج والكمال، منذ ظهر العرب على صفحة التاريخ"[2].

لا شك أن كثيراً من القصائد قد تم انتحالها بالفعل. وقد تصدى لكشف هذا الانتحال باحثون كثر، من العرب القدماء والمستشرقين المحدثين؛ مؤكدين أنه قد بقي لدينا، من أصول الشعر الجاهلي، قصائد كثيرة، صحيحة النسبة إلى أصحابها. ولو افترضنا، جدلاً، أن هذا الشعر كله منحول؛ لقام سؤال يقول: فعلى

---

[1]- طه حسين. في الشعر الجاهلي. ص32

[2]- كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. قسم1. ص104

أي مثالٍ بنى هؤلاء المنتحلون قصائدهم؟. ألم تكن لهم أصول سابقة يحاكونها؟!. يقول المستشرق ليال (Charles James Lyall)، فيما ينقله عنه الدكتور شوقي ضيف:

إن "نفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه؛ إذ لا يمكن أن يحاكوا شيئاً لم يبق منه ما يتيح هذه المحاكاة. وإذن فلا بد أن يكون هناك شعر جاهلي عرفه الإسلاميون وحاكوه. وحقاً دخله انتحالُ أمثال حماد وخلف، ولكن وراء انتحالهم شعر صحيح، ينبغي أن نهتدي في معرفته بالرواية الوثيقة وصفاته الشخصية والأسلوبية المميزة"[1].

والحق أن عميد الأدب العربي كان قد أثبت وجود حياة جاهلية، جنباً إلى جنب إنكاره كون هذا الشعر الجاهلي يمثلها؛ واستمد ما يثبت به ذلك من آيات القرآن. ولئن أوشك، بهذه الطريقة، أن ينفي شكنا في مقصوده؛ لقد عاد، مرة أخرى، إلى وضع القرآن في سلة واحدة، مع الكتب التي لا تصلح أداة للاستدلال التاريخي، حين قال:

"للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً؛ ولكن ورود هذين الاسمين، في التوراة والقرآن، لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي"[2].

فعاودنا الشك، كما عاود هو التشكيك.

---

[1]- شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص168

[2]- طه حسين. في الشعر الجاهلي. ص31

والحقيقة أن اللغة العربية الشمالية (العدنانية) كان في وسعها أن تستوفي شكلها الجمالي الأعلى، وتجتمع في لغة عالية . كما يقول المستشرق بروينلش[1] . في وقت مبكر من العصر الجاهلي، لينزل بها القرآن. صحيح أنه كان لأهل اليمن القحطانيين لغة بعيدة، بهذا القدر أو ذاك، عن لغة العدنانيين في الشمال؛ وصحيح، كذلك، أن كل هذا الشتات من القبائل الشمالية كانت له لهجاته اليومية . إن كل هذا ثابت لدينا . لكن ما هو على نفس المقدار من الثبات: أن عرب الجاهلية، من الشمال والجنوب، قد أخذوا يعمدون، منذ فترة مبكرة من العصر الجاهلي، إلى استخدام لغة مكة العالية . بصفتها العاصمة الدينية والثقافية . لينظموا شعرهم بأساليبها وعلى منوالها، كما نفعل اليوم حين نتكلم بلهجاتنا العامية، ثم نكتب بلغة أخرى، هي الفصحى الصحيحة. يقول كارل بروكلمان:

"ولا شك أن لغة الشعر القديم هذه، لا يمكن أن يكون الرواة والأدباء اخترعوها، على أساس كثرة من اللهجات الدارجة. ولكن هذه اللغة لم تكد تكون لغة جارية في الاستعمال العام، بل كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات، وإن غذتها جميع اللهجات"[2].

إن هذا الاستكمال الجمالي المميز، لهذه اللغة الفنية الرسمية القرشية، التي نسميها اليوم فصحى؛ قد أكد حدوثه وظهر جليّاً في مجامع الأدب وأسواقه . عكاظ، ذي المجاز، المجنّة . قبل نزول القرآن الكريم. ولو صح القول بانتحال

---

[1]ـ انظر: أ. بروينلش في جريفسفلد. دراسة في كتاب لمجموعة من المؤلفين بعنوان: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي. ترجمة عبد الرحمن بدوي. ص132

[2]ـ كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. قسم1. ص102

الشعر الجاهلي، بزعم انعدام اللغة الواحدة الموحدة؛ إذن لما كان ثمة من معنىً، لنزول الكتاب العزيز على قوم بلغة لا يعرفونها!. ولما كان هناك من معنى لتحديه إياهم أن يأتوا بسورة من مثله: إذ كيف يقوم التحدي بأدوات لا يحسن الخصم استخدامها؟.

لقد كانت هناك لغة مستوفية لشروط الجمال، وكان هناك كاتبون، في مكة والمدينة، تلقفوا هذه الآيات، من فم رسول اللهﷺ، فكتبوها. وكان هناك شعر محفوظ شفهياً، ويروى بالنقل من جيل إلى جيل، خصوصاً وأن عصر الجاهلية قريب من عهود التدوين.

ثانياً: في أولية الشعر:

إن الشعر والأدب عموماً، هما تعبير عن وعي الإنسان بلغته: وعي أنها قادرة على التعبير عن عواطفه، في ثوب يتجاوز المعنى المراد، إلى ما وراء ذلك، من جمال أسلوبي يلفت السامعين إلى ذات القول، أكثر مما يلفتهم إلى مقول القول. وهذا يعني تدرجاً في سلم الاهتمامات الإنسانية، متنقلاً . عبر أطوار عديدة . من الاقتصار على الحاجات، إلى البحث عن الكماليات.

هكذا نشأ الشعر، وهكذا نشأت القصيدة العربية. إذ لا شك لدينا بأن القصيدة العربية . التي وصلت إلينا في شكلها الجاهلي الشمالي المعروف . لم تكن على هذه الصورة منذ أول قصيدة. وإن هذا لمما تشهد به طبائع الأشياء، ولا يحتاج إلى دليل من خارج ذاته.

لدينا إذن أحدٌ ما، في جزيرة العرب أو قريباً منها، وفي عصر سابق على العصر الجاهلي، قد قال القصيدة لأول مرة . وبلغة قد لا تكون تامة الجمال كهذه اللغة . فسمعه آخرون، فقلدوه أو حاكوه. ثم أخذ الجيل بعد الجيل يحاكي البدايات، وأخذت اللغة الأدبية تتطور وتتنامى، وأخذت الأجيال كذلك تتجاوز ما كانت قد حاكته، رويداً رويداً، إلى أن وصلت اللغة والقصيدة، إلى بدايات العصر الجاهلي، حيث هذا الشكل الأقرب ما يكون إلى الاكتمال.

ولكي نزيد هذا المقول بياناً دعونا نقرأ قول امرئ القيس:

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خِذام[1]

ألا نرى كيف يحتاج الملك الضليل . وهو من هو في الشعر . إلى من يتخذه مثالاً يسبقه، كما يتخذ الصبي من أبيه ما يجري على منواله، حتى وهو يخالفه فيما بعد!. ثم لا يهم بعدُ من هو (ابن خِذام) هذا، ولو كان حتى شخصية اختلقها أكبر شاعر عربي منذ فجر التاريخ؛ بل المهم أنه رجع إلى سُنّةٍ فطرية، لما لم يجد لها ما يسندها في الواقع، اختلقها. وفي هذا يقول الدكتور شوقي ضيف: "ولا نعرف من أمر ابن خذام هذا شيئاً، سوى تلك الإشارة التي قد تدل على أنه أول من بكى الديار ووقف في الأطلال"[2].

ووفق نفس المنهج دعونا نتأمل قول ابن سلام:

---

[1]- ابن سلام. طبقات فحول الشعراء. السفر 1. ص39

[2]- شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص183

"كان أول من قصّد القصائد وذكر الوقائع (المهلهل بن ربيعة التغلبي) في قتل أخيه (كليب وائل): قتلته بنو شيبان. وكان اسم المهلهل عديّاً، وإنما سمى مهلهلاً لهلهلة شعره كهلهلة الثوب، وهو اضطرابه واختلافه"[1].

ثم دعونا نلاحظ أنه يخالف ما لدينا من شعر المهلهل بن ربيعة: فنحن قد رأينا أن قصائد المهلهل متراوحة بين الجيد والرديء وما بينهما، بل إن منها لمما يُعدّ من أفضل النماذج. ولكي لا يكون كلامنا خبط عشواء، دعونا نقرأ هذه الأبيات:

بكرهِ قلوبنا يا آل بكرٍ نغاديكم بمرهَفة النصالِ
لها لونٌ من الهامات جَونٌ وإن كانت تُغادَى بالصقالِ
ونبكي حين نذكركم عليكم ونقتلكم كأنّا لا نبالي[2]

إننا لا نرى في هذه الأبيات اضطراباً أو هلهلة، بل نراها في القمة السامقة. وإذا كان الكثير من المحفوظ لدينا، للمهلهل، يبلغ مثل هذه القمة أو يدانيها، فإن نتيجة ذلك دالة وتقول بأن المهلهل ليس أول من عالج قول الشعر العربي؛ إذ لا شك أن هناك من عبّد الطريق دونه، ووضع قبله الأمثلة، فتقصّد المهلهل طريقه، ليأتينا بهذه القصائد المعجِبة.

ورغم أن القصيد العربي كان قد مر بمراحل من التطور، قبل أن يصل إلى المهلهل، أو ابن أخته الملك الضِلّيل، إلا أن ما ينسبه الرواة من شعر إلى آدم وحواء، هو ضرب من الضلالة، وغيّ لا سبيل إلا إلى تكذيبه، فلا شك أن اللغة

---

[1]- ابن سلام. طبقات فحول الشعراء. السفر 1. ص39

[2]- الخالديان. الأشباه والنظائر. ج1. ص4

العربية لم تكن قد ولدت، كما لا شك أنه ما من أحد من الرواة الموثوقين أدرك ذلك العصر، لتحمله عنه الأجيال والأحقاب إلينا كما سمعه:

"والحق أنه ليس بين أيدينا شيء ـ من وزن أو غير وزن ـ يدل على طفولة الشعر الجاهلي وحقبه الأولى، وكيف تم له تطوره حتى انتهى إلى هذه الصورة النموذجية، التي نلقاها منذ أوائل العصر الجاهلي، أو بعبارة أخرى، منذ أوائل القرن السادس الميلادي"[1].

والنتيجة المنطقية لكل ذلك، هي أن هناك من قال الشعر ـ قبل المهلهل ـ لا نعلمه، وإن كانت قصائد المهلهل أقدم ما وصل إلينا، من روائع القصيد الشمالي، بهذا اللسان المبين، الذي سينزل به القرآن بعد قليل.

من هنا، فإن قصارى ما بلغته الرواية الشفاهية الموثوقة، أن أوصلت إلينا العديد من هذه الروائع، فوضعتها بين يدي بدايات العصر العباسي، ليقوم الكاتبون بتدوينها، حرصاً عليها من الضياع، خصوصاً بعد أن تغيرت طبيعة العربي، بسكنى المدن، وضعفت سليقة الحفظ لديه.

---

[1]ـ شوقي ضيف. الشعر الجاهلي. ص186

رابعاً: في غنائية الشعر الجاهلي:

رابعاً.1: تمهيد:

تقسم النظرية الأدبية الكلاسيكية، المتوارثة منذ الإغريق، الشعر أربعة أقسام: الشعر الملحمي، والشعر الدرامي، والشعر التعليمي، والشعر الغنائي. فأما التعليمي فهو الشعر الذي ينظم الكلمات ليسهل بها حفظ العلوم، كألفية ابن مالك على سبيل المثال. وأما كل من الشعر الملحمي والدرامي، فيهتم بقص حكاية على الناس، إن بواسطة الغناء في الملحمة، أو بواسطة التمثيل في الدراما. فهما من فنون المحاكاة، محاكاة أفعال الناس بواسطة الشعر.

وأما الشعر الغنائي فهو ذلك القسم من الشعر الذي تهتم الكلمة فيه بنفسها وبقائلها. أي أن الشعر الغنائي نتاج فني ذاتي صرف، وتعبير فردي نابع من أحاسيس الشاعر، ويعبر عن استجاباته للمحيط، كما يراه هو: "فالمادة الأساسية لأنواع الشعر الأخرى هي الأحداث، أما الشعر الغنائي فكله مخصص للأحاسيس: إنها موضوعه ومادته الجوهرية"[1].

يمكن القول بأن الشعر الغنائي يعبر عن اغتناء الشاعر بنفسه، أي أنه يجعل الحدث خادماً للذات، في مقابل الشعر الملحمي والشعر الدرامي، الذين يعبر بهما الشاعر عن الحدث، مهملاً ذاته، أو واضعاً إياها في المرتبة الثانية من الأهمية. وفي هذا يقول جورج سانتيانا:

---

[1]- جيرار جينيت. مدخل إلى النص الجامع. ص31

"ويمكن تقسيم الشعراء إلى طبقتين: الموسيقيين والسيكيولوجيين. والطبقة الأولى تتكون من الذين يسيطرون على اللغة، بوصفها إيقاعاً... ونجد أمثلة لهذا الفن في خطابة شيشرون، وفي شعر الحكم، وفي القصائد الغنائية والمرثيات. أما السيكيولوجيون فهم لا يولدون تأثيرهم عن طريق ما في اللغة من كمال ذاتي، وإنما عن طريق تكييفهم اللغة للموضوعات تكييفاً دقيقاً. وطبيعي أن الشعراء المسرحيين هم مثل لذلك النوع الثاني من الشعراء"[1].

فعلى خلاف ما هو عليه الحال في شعر الملحمة والمسرحية، حيث يتوجه الشاعر إلى مستمعيه، متحدثاً عما يهمهم هم، أكثر مما يتحدث عما يهمه . كما رأينا في السطور السابقة . فإن الشاعر الغنائي يتحدث إلى نفسه، أو إلى شخص آخر، إلى روح الطبيعة، أو إلى إلهة الوحي، أو إلى الحبيب:

"إن القصيدة الغنائية هي الشاعر مقدماً صورة للعلاقة مع نفسه... وبصريح العبارة، فإن الشاعر [الغنائي] يدير ظهره لمستمعيه، حتى إن كان يتحدث إليهم، وحتى لو رددوا بعض كلماته من بعده"[2].

---

[1]- جورج سانتيانا. الإحساس بالجمال. ص236

[2]- انظر: نورثروب فراي. تشريح النقد. ص358

رابعاً.2: في تاريخ المصطلح:

أما لماذا سمي هذا النوع من الشعر الذاتي غنائياً، فمرده إلى ما قيل من أن الإنسان الأول غنى أحاسيسه الشعرية بصوته، ثم استخدم الآلات الموسيقية لتعينه على التعبير. وقد قيل إن الشعراء اليونانيين كانوا يغنون شعرهم على القيثارة. وربما يمكن القول بأن هناك إشارات توحي بأن بداية الشعر العربي كانت كذلك، حيث يمكن تصور أن الإنسان العربي تغنى بأحاسيسه، طوال رحلة السفر في الصحراء، بين السماء العالية والأرض الممتدة. ولعل في هذا إشارة لافتة إلى بعض من أسباب تسمية سفر الشعر العربي الأشهر، الذي جمعه أبو الفرج الأصفهاني، بالاسم اللافت: الأغاني.

على أنه سواء ثبتت صحة هذا السبب أو لم تثبت، فإن لنا أن نقترح سبباً حديثاً لهذه التسمية، يعود إلى أصل عربي معجمي، وبذا نساهم في تعريب المصطلح.

لا ريب أن كلمة (غنائي) في التعبير العربي تعود في أصلها إلى واحد من مصدرين، أو كليهما، هما: الغنى، والغناء. وفي قول الرسولﷺ :ليس منا من لم يتغَنَّ بالقرءان، ما يشير إلى المعنيين: الاستغناء والتطريب. "قال الأزهري: فمن ذهب به إلى الاستغناء، فهو من الغنى، مقصور. ومن ذهب به إلى التطريب، فهو من الغناء، الصوت، ممدود. وقد سميت المرأة المستغنية بجمالها عن الحلي غانيةً، لشدة جمالها، فهي "تُطلب ولا تَطلب"[1].

[1]- ابن منظور. لسان العرب. مادة: غنا

وعلى هذا يمكن إرجاع مصطلح غنائي، المشير إلى الشعر الذاتي، إلى أصل عربي يقول: إن الغنائي من الشعر هو ما استغنت به ذات الشاعر عن الآخرين، جمالاً ومنفعة:

1. فهو من حيث الجمال لا يطلب إلا ذاته . أي ذات الشاعر . وحتى حين ينصب حديثه عن الخارج، فإنه لا يفعل ذلك إلا من خلال انعكاس هذا الخارج على ذاته، أي أن ذاته هي التي تعيد إنتاجه.
2. وهو من حيث المنفعة لا يحتاج أحداً من المستمعين: إذ يغني الشاعر عن نفسه لنفسه، غير ملتفت إلى جمهور، كما نقلنا عن نورثروب فراي قبل سطور قليلة.

فالشعر الغنائي جمالي بحت لا يتوخى منفعة، إذ لا يبحث عن موضوع يقدمه، أو قصة يسردها. ومن هنا فسوف أرتضي تعريفاً للشعر الغنائي، أنشؤه أنا ولم أره في أي من المصادر، هو: الشعر الغنائي هو ذلك النوع من القصيد الذي تغتني به أحاسيس الشاعر الداخلية عن الموضوع، وتعبر فيه عن الكلمة عن نفسها، بغض النظر عن المحتوى النفعي الخارجي، الذي يأتي زائداً على وظيفة المتعة.

رابعاً.3: الشعر الجاهلي غنائي كله:

لقد ظهر الشعر العربي غنائياً منذ بدئه، بل إنه ارتبط بالغناء منذ أيامه الأولى،

"ومن حين إلى حين، نجد أبا الفرج الأصفهاني يشير إلى أن شاعراً جاهلياً تغنى ببعض شعره، مثل السليك بن السلكة، وعلقمة بن عبدة الفحل،

والأعشى؛ وكان يوقع شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصنج، ولعله من أجل ذلك سمي (صنّاجة العرب)... فالغناء كان أساس تعلم الشعر عندهم، ولعلهم من أجل ذلك عبروا عن إلقائه بـ(الإنشاد)، ومنه (الحُداء) الذي كانوا يحدون به في أسفارهم، وراء إبلهم، وكان غناء شعبياً عاماً"[1].

ولعلنا لا نبعد كثيراً إذا قلنا بأن النبيﷺ كان قد اتخذ حادياً اسمه (أنجشة)، يحدو القافلة في طريق عودتها من حجة الوداع، وقد بلغ من تأثير غناء الحادي في النسوة، اللاتي كن في القافلة؛ أن أمره الرسولﷺ بالتخفيف من إيقاع الحزن في غنائه، مراعاة لقلوب النساء أن تتكسر، فقال: "رويدك يا أنجشة، لا تكسر القوارير"[2].

---

[1]ـ متفق عليه من حديث أس بن مالك. انظر: جامع الأصول. المجلد5. ص172. حديث 3229

[2]ـ شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص190-191

الفصل الثالث

النصوص النثرية

أولاً: في قلة النصوص النثرية الجاهلية:

وإذا كان العرب قد عُنوا بحفظ الشعر وروايته، حتى عصر التدوين المتأخر، فإنهم لم يفعلوا مثل ذلك في نثرهم الأدبي، فقد رأينا أن ما وصلنا من تراث أدبي نثري قليل، وهو في أكثره لا يثبت أمام التمحيص[1]. ومع ذلك فقد وصلنا من هذا القليل بعض الأخبار وسجع الكهان والأمثال والقصص الدينية، وبعض الخطب القصيرة، وبعض أقوال الحكماء، بين ثنايا الأساطير والترهات الجاهلية. ولعله يجمل بنا أن نثبت في هذا الكتاب بعض نماذج من ذلك.

---

[1]- انظر: شوقي ضيف. الشعر الجاهلي. ص404

ثانياً: نماذج من النصوص النثرية الجاهلية:

ثانياً.1: شق وسطيح يتنبآن بظهور النبي الخاتم:

وأول ما نبدأ به قصة رواها ابن هشام، في السيرة النبوية، عن إرهاصات ظهور النبي الخاتمﷺ، وما قالته الكهان من سجعها في ذلك، حين استنطقها الملك اليمني ربيعة بن نصر. قال ابن هشام:

"وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة، فرأى رؤيا هالته وفُظع بها، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً[1] ولا منجماً، من أهل مملكته، إلا جمعه إليه، فقال لهم: إني قد رأيت رؤيا هالتني، وفُظعت بها، فأخبروني بها وبتأويلها. قالوا له: اقصصها علينا نخبرك بتأويلها. قال: إني إن أخبرتكم بها، لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها، قبل أن أخبره بها. فقال له رجل منهم: فإن كان الملك يريد هذا، فليبعث إلى سطيح وشق[2]، فإنه ليس أحدٌ أعلم منهما، فهما يخبرانه بما سأل عنه...

---

[1]- العائف: مهنته أن يخبر بما يزعم أنه خير أو شر، فينفر الطائر عن عشه، فإذا طار شمالاً تشاءم وأمر السائل بالكف عما يهم به، أما إذا طار يمينا فيتفاءل ويأمره بالمضاء لما عزم عليه.

[2]- قال السهيلي: "وكان سَطِيْح جسداً ملقىً لا جوارح له - فيما يذكرون - ولا يقدر على الجلوس، إلا إذا غضب انتفخ فجلس. وكان شِقٌّ شِقَّ إنسان - فيما يذكرون - إنما لهل يد واحدة، ورجل واحدة، وعين واحدة. ويُذكر عن وهب بن منبه أنه قال: قيل لسطيح: أنّى لك هذا العلم؟ فقال: لي صاحب من الجن، استمع أخبار السماء من طور سيناء، حين كلم الله موسى، فهو يؤدي إليَّ من ذلك ما يؤديه". الروض الآنف. الجزء1. ص133-134

فبعث إليهما. فقدم عليه سطيح قبل شق، فقال له: إني رأيت رؤيا هالتني وفُظعت بها، فأخبرني بها، فإنك إن أصبتها أصب تأويلها. قال: أفعل. رأيتَ حُمَمَةْ[1]، خرجت من ظلمةْ، فوقعت بأرض تَهمةْ، فأكلت منها كل ذات جمجمةْ. فقال له الملك: ما أخطأتَ منها شيئا يا سطيح. فما عندك في تأويلها؟ فقال: أحلف بما بين الحرتين من حَنَشْ، لتهبطن أرضكم الحَبَشْ، فلتملكن ما بين أَبْيَنَ إلى جُرَشْ. فقال له الملك: وأبيك يا سطيح، إن هذا لنا لغائظٌ موجع. فمتى هو كائن، أفي زماني هذا، أم بعده؟. قال: لا، بل بعده بحينْ، أكثر من ستين أو سبعينْ، يمضين من السنينْ. قال: أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع؟ قال: لا، بل ينقطع لبضع وسبعين من السنينْ، ثم يُقتَلون ويخرجون منها هاربينْ. قال: ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم؟ قال: يليه إرم ذي يزنْ، يخرج عليهم من عدنْ، فلا يترك أحداً منهم باليمنْ. قال: أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال: لا، بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبي زكيٌّ، يأتيه الوحي من قبل العليٌّ. قال: وممن هذا النبي؟ قال: رجل من ولد غالب بن فِهر بن مالك بن النضرْ، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهرْ. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم، يومٌ يجمع فيه الأولون والآخرونْ، يسعد فيه المحسنونْ، ويشقى فيه المسيئون. قال: أحق ما تخبرني؟ قال: نعم، والشفق والغسقْ، والفلق إذا اتسقْ، إن ما أنبأتك به لحقْ.

ثم قدم عليه شق، فقال له كقوله لسطيح، وكتمه ما قال سطيح، لينظر أيتفقان أم يختلفان؛ فقال: نعم، رأيت حُمَمَةْ، خرجت من ظُلمةْ، فوقعت بين

---

[1]- الحممة القطعة من النار

روضة وأكَمةْ، فأكلت منها كل ذات نسمة. قال: فلما قال له ذلك، وعرف أنهما قد اتفقا، وأن قولهما واحدٌ، إلا أن سطيحاً قال: وقعت بأرض تهمةْ، فأكلت منها كل ذات جمجمةْ. وقال شق: وقعت بين روضة وأكمةْ، فأكلت منها كل ذات نسمةْ. فقال له الملك: ما أخطأت يا شق منها شيئاً، فما عندك في تأويلها؟ قال: أحلف بما بين الحرتين من إنسانْ، لينزلنَ أرضكم السودانْ، فليغلبنّ على كل طفلةٍ البنانْ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران. فقال له الملك: وأبيك يا شق، إن هذا لنا لغائظٌ موجع، فمتى هو كائن؟ أفي زماني أم بعده؟ قال: لا، بل بعده بزمانْ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شانْ، ويذيقهم أشد الهوانْ. قال: ومن هذا العظيم الشان؟ قال: غلام ليس بِدَنيٍّ ولا مُدَنٌّ، يخرج عليهم من بيت ذي يزنْ، فلا يترك أحداً منهم باليمنْ؛ قال: أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسول مرسلْ، يأتي بالحق والعدلْ، بين أهل الدين والفضلْ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصلْ"[1].

ونحن إذ لا نقطع بصحة هذا الخبر، فإننا كذلك لا نقطع بكذبه، فقد كان بين العرب من الكهان من ينتظرون بعثة محمدﷺ، ويسجعون الأسجاع، التي يشبه هذا شيئاً من كلامهم.

[1]- ابن هشام. السيرة النبوية. الجزء1. ص15-17

ثانياً.2: حفر زمزم:

من المعلوم أن بعض القبائل كانت قد أجلت جُرهم عن الحرم، بعد سنوات من وفاة إسماعيل، فردمت جرهم بئر زمزم قبل رحيلها، حتى آلت زعامة الحرم إلى قصي بن كلاب، فكان هو وأولاده يسقون الحجيج، ويقاسون من ذلك عناءً شديداً، يحرصون على بقائه في أيديهم لشرفه، حتى آل أمر السقاية إلى عبد المطلب بن هاشم، فكثر الحجيج، وركب الهم عبد المطلب، ولم يكن لديه من الأبناء من يعينه على ذلك، باستثناء ولده الوحيد الحارث . وكان ذلك قبل أن يرزق بنيه العشرة . وصار يستذكر ما قيل له ن زمزم وردمها، وأخذ يفكر في إعادة حفرها. ولكن واجهته مشكلة أنه لا يعرف مكانها، فكان ما يأتي:

"قال عبد المطلب: إني لنائم في الحِجْر إذ أتاني آتٍ فقال: احفر طيبة. قال: قلت: وما طِيبة؟ قال: ثم ذهب عني. فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر برة. قال :فقلت: وما برة؟ قال: ثم ذهب عني. فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة. فقال: فقلت: وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب عني. فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر زمزم. قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبداً ولا تُذمْ، تسقي الحجيج الأعظمْ، وهي بين الفرث والدمْ، عند نقرة الغراب الأعصمْ، عند قرية النمل...

فلما بُيِّن له شأنُها، ودُل على موضعها، وعرف أنه قد صُدق؛ غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب . ليس له يومئذ ولد غيره . فحفر فيها. فلما بدا لعبد المطلب الطَيُّ كبر. فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا

إليه فقالوا: يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً، فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خُصِصْتُ به دونكم، وأُعْطِيْتُه من بينكم. فقالوا له: فأنصفنا، فإنّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها. قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعد بن هذيم. قال: نعم...

فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر... فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز، بين الحجاز والشام، فني ماء عبد المطلب وأصحابه، فظمئوا حتى أيقنوا بالهَلَكة، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش، فأبوا عليهم وقالوا: إنّا بمفازة، ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم. فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم، وما يتخوف على نفسه وأصحابه، قال: ماذا ترون؟ قالوا: ما رأينا إلا تبع لرأيك، فمُرْنا بما شئت. قال: فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه، بما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجل، دفعه أصحابه في حفرته، ثم واروه؛ حتى يكون آخرُكم رجلاً واحداً، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركبٍ جميعاً. قالوا: نِعْمَ ما أمرت به.

فقام كل واحد منهم فحفر حفرته، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً. ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا لعجزٌ، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد. ارتحلوا. فارتحلوا. حتى إذا فرغوا ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون تقدم عبد المطلب إلى راحلته، فركبها. فلما انبعثت به، انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب

،وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب، وشرب أصحابه واستقوا، حتى ملأوا أسقيتهم. ثم دعا القبائل من قريش، فقال: هلم إلى الماء، فقد سقانا الله. فاشربوا واستقوا. ثم قالوا: قد والله قُضِيَ لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً. إن الذي سقاك هذا الماء . بهذه الفلاة . لهو الذي سقاك زمزم. فارجع إلى سقايتك راشداً. فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبينها"[1].

ثانياً.3: الخطابة:

أما في مجال الخطب فلدينا نص صحيح لخطبة حكيم العرب، قس بن ساعدة الإيادي، الشهيرة في سوق عكاظ، وكان رسول اللهﷺ قد سمعه في الجاهلية يخطب بها، فرواها من بعد ونقلها عنه الرواة. قال قس بن ساعدة:

"يا معشر الناس اجتمعوا، فكل من فات فاتْ، وكل شيء آتٍ آتْ، ليل داجْ، وسماء ذات أبراجْ، وبحر عجاجْ، نجوم تزهرْ، وجبال مرسيّةْ، وأنهار مجريّةْ. إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً. ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟!. أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تُركوا فناموا!. أقسم قسٌ بالله قسماً لا ريب فيه: إن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا.

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائرْ
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادرْ
ورأيت قومي نحوها ... يمضي الأصاغر والأكابرْ

[1]- ابن هشام. السيرة النبوية. الجزء1. ص92-94

لا من مضى يأتي إليـ ك ولا من الباقين غابرْ
أيقنت أنى لا محا لةَ حيثُ صار القوم صائرْ"[1]

ثانياً.4: الأمثال والحكم:

ثانياً.4/أ: تعريف المثل:

قال السيوطي:

"قال أبو عبيد: الأمثال هي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق، بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خصال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه... وقال المرزوقي في شرح الفصيح: المثل جملة من القول مقتضبةٌ من أصلها، أو مرسلةٌ بذاتها، فتتّسم بالقَبول، وتشتهر بالتّداول، فتنتقل عمّا وردت فيه، إلى كلِّ ما يصحّ قصده بها، من غير تغييرٍ يلحقها في لفظها، وعمّا يوجّه الظّاهر إلى أشباهه من المعاني. فلذلك تُضرب، وإن جُهلت أسبابها التّي خرجت عليها"[2].

---

[1]- ابن كثير. البداية والنهاية. المجلد1. الجزء2. ص230

[2]- السيوطي. المزهر. المجلد1. ص486

ثانياً.4/ب: تعريف الحكمة:

يمكن القول بأن الحكمة هي النادرة، لأنها نادرة الشيوع بين الناس. وعلى هذا فيمكن أن يقال بأن الحكمة "تؤدي ما يؤدي عنه المثل، إلا أنها لم تشع في الجمهور، ولم تجرِ إلا بين الخواص. وليس بينها وبين المثل، إلا الشيوع وحده"[1].

ثانياً.4/ج: الخلاصة:

إذن، ففي العلاقة بين المثل والحكمة عموم وخصوص، بحيث يمكن القول بأن كل مثل هو حكمة، في نظر قائليه، وليست كل حكمة مثلاً. وذلك لأن المثل يجري على لسان الناس دوماً، ويتعارفون عليه، حكيمهم وجاهلهم. أما الحكمة فربما تكون مجرد أقوال تلقى الاحترام عند الناس، لكن خاصتهم فقط هم من يعرفونها أو يتداولونها.

ثانياً.4/د: أمثال العرب وحكمهم في الجاهلية:

اهتم العرب برواية الأمثال والحكم، وجعلوها مرجعاً يرجعون إليه، حين يريد الواحد منهم أن يستشهد على صحة قوله، في موضوع من المواضيع، كما نفعل اليوم. فمعلوم أن طبيعة البشر تميل إلى تأكيد أن ما قد يفعله المرء، في موقف من المواقف . مما قد يراه الآخرون غريباً . إنما هو إلى العادية أقرب، والناس إليه أسبق؛ وبذا يحاول إزالة غرابة ما فعل، ليسلك بفعله هذا فعل من سبقه، ممن لم يُنكر عليه قوله أو فعله.

---

[1]- السيوطي. المزهر. المجلد1. ص486

وربما يجدر بنا القول اليوم، إن الأمثال تختلف عن الحكم: في أن بالإمكان اعتبارها جنساً من أجناس الفلكلور الشعبي، لأنها من صناعة الوعي الجمعي للأمة، ومتعارفة عليه بعمومها: إذ لا يُعرف قائلها في غالب الأحيان؛ وحتى لو عُرف، فإنه لا يكون هو بذاته محط الاهتمام، بل قيله لا شخصه. وقد اعتبرنا هذا الفارق . بين المثل والحكمة . لما رأيناه من كون الحكمة غير شائعة، بعكس المثل. فما الوعي الجمعي إلا نوعاً من الشيوع المتعارف عليه.

ثانياً.4/هـ: بعض حكماء الجاهلية:

ثانياً.4/هـ*: لقمان الحكيم:

لا شك أن العرب الجاهليين كانوا يروون حكماً كثيرة منسوبة إلى رجل اسمه لقمان. فلما جاء الإسلام ونزل القرآن ذكر لقمان، لكن صورة لقمان في القرآن تختلف عن صورته لدى العرب الجاهليين.

"ولقدم لقمان حفّت الأسطورة به وبحياته، وكل ما يتصل بصلاته مع الناس والنساء. فقال الإخباريون إنه كان عملاقاً كبير الرأس، قوياً قوة خارقة، حكيماً حكمة بالغة. وقالوا إنه عاش عمر سبعة نسور، وأن كل نسر منها عاش ثمانين سنة، وكان (لُبَدٌ) آخرها، وبه ضربوا المثل في طول العمر، فقالوا: طال الأبد على لبد. ونُسبت إلى لقمان في عصور متأخرة طائفة من

الأقاصيص أُريد بها إلى العظة والاعتبار، وسُميت أمثال لقمان، وهي مكتوبة بأسلوب ركيك ضعيف"[1].

لذا يمكن القول بأن لقمان الجاهلية يختلف في كثير عن لقمان القرآن. فهل هو هو ثم زاد عليه الناس ما زادوا؟ أم هو غيره ثم ظن الناس أنه هو؟. الجواب لا يقدم أو يؤخر، فإن كان الأول أو الثاني فإن ذلك لا يعني إلا شيئاً واحداً: أننا لا يمكن أن نقبل صورة لقمان الجاهلية على أنها حق يراد به الشخص الذي ورد في القرآن.

أما أنه حكيم فأمر لا مرية فيه، خصوصاً وقد ورد اسمه في القرآن، مقترناً بالحكمة وسداد الرأي، حتى سميت باسمه إحدى سوره. وأما أنه عربي جاهلي، فلا يمكن الجزم فيه بشيء ذي بال، فنحن لا نعلم أصله أو جنسه أو لسانه. كما أننا لا نعرف إن كان نبياً أو مجرد حكيم، وهل هو من العرب البائدة أم من الأمم الأخرى... إلخ. وما ذاك إلا لأننا نعرض عن كل ما ورد في التفاسير من الإسرائيليات المتضاربة إعراضاً، لما تمتلئ به من ضعف الانتساب، وقلة المعقولة، إذ يكفينا أنه حكيم بليغ مؤمن يستشهد الناس بأقواله. وقد بلغت بعض أقواله العرب، ورووها وتناقلوها، حتى بلغ بعضها البعثة النبوية المباركة. فإن كانوا نقلوها بلسانه فهو عربي، وإن كانوا نقلوها بمعناها . وهو الأقرب للظن . فهو غير ذلك. وما يهمنا منها هنا هو أنها أدب عربي، باعتبار العرب يتقولونها متجملين بلسانهم. فما يقول العرب إنه حكمة لقمان، ثم يروونها على ذلك بلسانهم، فهو من الآثار الأدبية العربية. ونحن هنا ننقل ما نرى أنه قريب إلى الصحة مما نقل إلينا:

---

[1]- شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص405-406

روى ابن هشام في السيرة أن سويد بن صامت قدم مكة حاجا أو معتمراً،

"فتصدى له رسول اللهﷺ، حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام. فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي. فقال له رسول اللهﷺ: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان . يعني حكمة لقمان . فقال له رسولﷺ: اعرضها عليّ. فعرضها عليه. فقال له: إن هذا لكلامٌ حسنٌ، والذي معي أفضل من هذا: قرآن أنزله الله تعالى عليّ هو هدىً ونورٌ. فتلا عليه رسولﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا لقول حسن. ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتلته الخزرج. فإنه كان رجال من قومه ليقولون إنا لنراه قد قُتل وهو مسلم. وكان قتله قبل يوم بعاث"[1].

ونحن لا نعلم مما ورد في هذه الصحيفة من الحكم، لأننا لا نعول كثيراً على ما نقلته كتب التفسير منها، مكتفين بهذين الأثرين الذين رويا عن الإمام مالك في أحدى نسخ الموطأ: قال:

1. "يا بُنَيَّ إن الناسَ قد تطاول عليهم ما يُوعَدُون، وهم إلى الآخرةِ سِرَاعا يذهَبُون. وإنَّك قد استدبرتَ الدنيا منذ كنتَ، واستَقْبَلتَ الآخرةَ. وإن دارا تَسِيرُ إليها، أقربُ إليك من دار تخرج عنها"[2].

---

[1]- ابن هشام. السيرة النبوية. الجزء2. ص49.50

[2]- انظر: ابن الأثير الجزري. جامع الأصول. الجزء11. مادة رقم8484. ص18

2. "قيل لِلُقْمان الحكيم: ما بلغ بك ما نرى؟ . يريدون الفضل . قال: صِدْقُ الحديث، وأداء الأمانة، وتَرْكِي ما لا يعنيني، والوفاء بالوعد"[1].

وإليك بعضاً من الحكم التي ينسبونها للقمان، وقد ذهبت أمثالاً:

"رُبّ أخٍ لك لم تلده أمك . أيهما كان ولا عَداء . ثكلت الأعيسر أمه، لو يعلم العلم لطال غمه . المبيت على الطوى خير من إتيان ما لا تهوى . لستَ لمن ليست لكه . كل امرئٍ في بيته أمير . عليّ التنوير وعليك التغيير . كل امرئٍ بشأنه عليم . آخر الدواء الكي"[2].

ثانياً.4/هـ**: أكثم بن صيفي:

حكيم من حكماء الجاهلية، تميمي النسب، يقال إنه لحق الإسلام، فأوشك أن يسلم، وركب متوجهاً إلى الرسولﷺ غير أنه مات في الطريق. وتدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة، منها: رب عجلة تهب ريثاً . ادّرعوا لليل، فإنه أخفى للويل . لا جماعة لمن اختلف . أسرع العقوبات عقوبة البغي . كفى بالمشرفيّة واعظاً . آلمُ الأخلاق أضيقُها . ليس من العدل سرعة العذل . الحرُّ حرٌّ وإن مسه الضُّرّ . إذا بالغت في النصيحة، هجمتْ عليك الفضيحة . الحرّ عَزوف... إلخ[3].

---

[1]- انظر: ابن الأثير الجزري. جامع الأصول. الجزء11. مادة رقم9345. ص698.

[2]- الميداني. مجمع الأمثال. الجزء1. ص291-292

[3]- انظر: شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص406-407

وللعرب الجاهليين حكماء عديدون، منهم عامر بن الظرب، وحاجب بن زرارة، والأقرع بن حابس، وربيعة بن مخاشن، وضمرة بن ضمرة، وغيلان بن سلمة، وعبد المطلب بن هاشم بن عبد ناف، وأبو طالب ابنه، والعاص بن وائل... إلخ.

بل إن منهم لحكيمات من أمثال: صخر بنت لقمان، وهند بنت الخس، وجمعة بنت حابس، وابنة عامر بن الظرب، الذي أسنّ فكان يهم، فأمر ابنته هذه أن تقرع له بالعصا، فإذا قرعت له توقف عن الكلام وراجع نفسه. وقد قال في ذلك المتلمس:

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلمهْ

إذ كان يقال: إن العصا قُرعتْ لذي الحِلْم. ويُضرب هذا المثل لمن إذا نُبّه انتبه[1].

ثانياً.5: أيام العرب:

ثانياً.5/أ: تمهيد:

كانت الجزيرة العربية مسرحاً واسعاً ممتداً للصراع بين القبائل على المراعي وفي سبيل طلب الثأر. والقبيلة كانت هي الوحدة السياسية التي يدين لها أفراد الناس، حيث يصبح الفرد في خدمة القبيلة، لا يرى إلا ما تراه، حتى لو كان خطأ محضاً. يقول دريد بن الصمة:

---

[1]- انظر: الميداني. مجمع الأمثال. الجزء1. ص37

وما أنا إلا من غُزَيَّةَ إن غوت غويتُ، وإن ترشدْ غُزَيَّةُ أرشدِ

ونحن لا نغالي إذا ما قلنا بأن القبيلة، في العصر الجاهلي، تقابل الوطن في العصور الحديثة: لها على الأفراد واجبات معلومة، ولهم عليها حقوق محفوظة.

"وقد تحولوا، بسبب اختصامهم على المراعي، واتخاذهم الغزو وسيلة من وسائل عيشهم، إلى ما يشبه كتائب حربية: فكل قبيلة مستعدة دائماً للحرب والجلاد والإغارة، على من حولها من البدو والحضر. وهي دائماً شاكية السلاح، حتى تحمي حماها ومنازلها وآبارها ومراعيها؛ ولذلك كانت الشجاعة مثلهم الأعلى"[1].

من هنا فقد نشأت الحروب المستمرة، وسموا الوقائع التي وقعت بين قبائلهم أياماً، فقالوا: (أيام العرب). ورأوا أن أفضل الموت ما كان في ساحة الوغى، ونعوا أنفسهم كلما مات الواحد منهم على فراشه. ولعلنا لا زلنا نذكر إلى الآن شدة اللوعة في كلام خالد بن الوليد وقد رأى نفسه يموت على الفراش. صحيح أنه كان يتمنى أن يموت شهيداً . وهذا من أثر الإسلام . لكن الصحيح كذلك أن تمني الموت في ساح الوغى، ليس مجرد رغبة دينية محضة، فقد وجد الإسلام هذه الرغبة أصيلة في العربي الجاهلي، فوجهها وجهة دينية. ويكفي أن نتأمل قول الشنفرى:

ولا تقبروني، إن قبري محرمٌ عليكم، ولكن أبشري أم عامرِ

[1]- شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص61-62

لندرك عظم هذه الرغبة لدى الجاهلي. فالشنفرى يتمنى أن تترك جثته للضباع تأكلها، ويوصي بعدم دفنها من الأصل.

لذلك تكاثرت الأيام والحروب بينهم، ومن أشهرها حرب البسوس، التي استمرت أربعين عاماً بين أبناء العمومة بكر وتغلب. ومنها حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان، وامتدت سنوات طوالاً، قبل أن يقع بينهما الصلح، الذي خلدته قصائد زهير بن أبي سلمى. ومنها يوم ذي قار، بين قبائل بكر بن وائل وحلفائهم، من جانب، والفرس وحلفائهم من قبائل العرب من جانب آخر.

ثانياً.5/ب: حرب البسوس:

فأما حرب البسوس فمشهورة معلومة، قامت بسبب انتهاك ناقة امرأة اسمها البسوس حمى كان كليب بن ربيعة قد حماه . وهو أول من حمى الحمى فيما يقولون . فقتلها، فاستجارت بجساس بن مرة، فقتل كليباً التغلبي، وتولى مهلهل بن ربيعة الثأر لأخيه، رافضاً كل عروض المصالحة. ولم تنته الحرب إلا بعد أن ملت بنو تغلب عناد مهلهل، فانعزل عنهم، ودخلوا في الصلح بعد أربعين عاماً من الحروب المتتالية.

والبسوس: "هي بسوس بنت منقذ التميمية، خالة جساس بن مرة بن ذهل الشيباني قاتل كليب. وكان من حديثه أنه كان للبسوس جارٌ من جَرْم، يقال له سعد ابن شمس، وكانت له ناقة يقال لها سراب، وكان كليب قد حمى أرضاً من أرض العالية في أنف الربيع، فلم يكن يرعاه أحد إلا إبل جساس، لمصاهرة بينهما، وذلك أن جليلة بنت مرة أخت جساس كانت تحت كليب،

فخرجت سراب ناقة الجرمي في إبل جساس، ترعى في حمى كليب، ونظر إليها كليب فأنكرها، فرماها بسهم فاختل ضَرعها، فولت حتى بركت بفناء صاحبها، وضرعها يشخب دما ولبناً. فلما نظر إليها صرخ: بالذل. فخرجت جارية البسوس ونظرت إلى الناقة، فلما رأت ما بها ضربت يدها على رأسها ونادت: واذلاه.... فلما سمع جساس قولها سكّنها، وقال: أيتها المرأة ليُقتلن غداً جمل هو أعظم عقراً من ناقة جارك.

ولم يزل جساس يتوقع غِرَّة كليب، حتى خرج كليب لا يخاف شيئاً، وكان إذا خرج تباعد عن الحي. فبلغ جساساً خروجه، فخرج على فرسه وأخذ رمحه... حتى طعن كليباً ودق صلبه، ثم وقف عليه، فقال: يا جساس أغثني بشربة ماء. فقال جساس: تركتَ الماء وراءك... وأقبل جساس يركض حتى هجم على قومه، فنظر إليه أبوه وركبته باديةٌ، فقال لمن حوله: لقد أتاكم جساس بداهية. قالوا: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: لظهور ركبته، فإني لا أعلم أنها بدت قبل يومها. ثم قال: ما وراءك يا جساس؟ فقال: والله لقد طعنت طعنة لتجمعنّ منها عجائز وائلٍ رقصا. قال: وما هي ثكلتك أمك؟. قال: قتلت كليباً. قال أبوه: بئس لعمر الله ما جنيت على قومك...

ثم قوضوا الأبنية، وجمعوا النَّعَم والخيول وأزمعوا للرحيل. وكان همام بن مرة ـ أخو جساس ـ نديماً لمهلهل بن ربيعة أخي كليب، فبعثوا جارية لهم إلى همام لتعلمه الخبر، وأمروها أن تُسره من مهلهل. فأتتهما الجارية وهما على شرابهما، فسارّت هماماً بالذي كان من الأمر، فلما رأى ذلك مهلهل، سأل هماماً عما قالت الجارية ـ وكان بينهما عهد أن لا يكتم أحدهما صاحبه شيئاً ـ فقال له: أخبرتني أن أخي قتل أخاك. قال مهلهل: أخوك أضيق إستاً

من ذلك. وسكت همام، وأقبلا على شرابهما، فجعل مهلهل يشرب شرب الآمن، وهمام يشرب شرب الخائف. فلم تلبث الخمرُ مهلهلاً أن صرعته فانسل همام... "[1].

وبعد أن صحا مهلهل من سكره، وعاد إلى قومه، وعلم الخبر اليقين، آلى على نفسه ألا يشربَ خمراً، ولا يلبسَ جديداً، ولا يقربَ النساء؛ حتى يبيد بني بكر. ولقد أبعد مهلهل، حتى إنه طلب أن تعيد بنو بكر كليباً إلى الحياة، فقال:

يَا لِبَكْرٍ أَنْشِرُوا لِي كُلَيْباً يَا لِبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الْفِرَارُ
يَا لِبَكْرٍ فَاظْعُنُوا أَو فَحِلُّوا صرحَ الشرُّ وبانَ السرارُ[2]

"ونشب الشر بين تغلب وبكر أربعين سنة، كلها يكون لتغلب على بكر"[3]. وسيطر الجنون على مهلهل، حتى صار كلما قتل من بكرٍ يزداد إصراراً على إصراره. يقول:

دَعَوْتُكَ يَا كُلَيْبُ فَلَمْ تُجِبْنِي وكيفَ يجيبني البلدُ القفارُ
أجبني يا كليبُ، خَلاكَ ذمٌّ لقدْ فُجعتْ بفارسها نزارُ
سقاكَ الغيثُ، إنَّكَ كنتَ غيثاً وَيُسْراً حِينَ يُلْتَمَسُ الْيَسَارُ
كَأَنِّي إِذْ نَعَى النَّاعِي كُلَيْباً تطايرَ بينَ جنبيَّ الشرارُ
وَحَادَتْ نَاقَتِي عَنْ ظِلِّ قَبْرٍ ثَوَى فِيهِ المَكَارِمُ وَالْفَخَارُ

---

[1]- الميداني. مجمع الأمثال. الجزء1. ص374-376

[2]- الموسوعة العالمية للشعر العربي. 2011/10/18

[3]- الميداني. مجمع الأمثال. الجزء1. ص376

أَتَغْدُو يَا كُلَيْبُ معي إِذَا ما جبانُ القومِ أنجاهُ الفرارُ
خذِ العهدَ الأكيدَ عليَّ عمري بتركي كلَّ ما حوتِ الديارُ
وَهَجْرِي الْغَانِيَاتِ وَشُرْبَ كَأْسٍ وَلُبْسِي جُبَّةً لاَ تُسْتَعَارُ[1]
وَلستُ بخالعٍ درعي وسيفي إلى أنْ يخلعَ الليلَ النهارُ
وإلاَّ أَنْ تَبِيدَ سَرَاةُ بَكْرٍ فَلاَ يَبْقَى لَهَا أَبَداً أَثَارُ[2]

وكان لا بد لهذه الحماقة الكبرى من نهاية. وجاءت النهاية على غير ما يرغب المهلهل، إذ دفعه غروره إلى أن يعمّ بحربه أعداءً جدداً، من البكريين الذين اعتزلوا الحرب، إنكاراً لما فعل جساس.

"وكان الحارث بن عُبَاد البكري قد اعتزل القوم. فلما استحرّ القتل في بكرٍ، اجتمعوا إليه، وقالوا: قد فنيَ قومك، فأرسل إلى مهلهل بُجيراً ابنك، وقل له: أبو بجير يقرئك السلام، ويقول لك قد علمت أني اعتزلت قومي لأنهم ظلموك، وخليتك وإياهم. وقد أدركت وترك، فأنشدك الله في قومك. فأتى بُجير مهلهلاً، وهو في قومه، فأبلغه الرسالة، فقال: من أنت يا غلام؟ قال: بُجير بن الحارث بن عُبَاد. فقتله، ثم قال: بؤْ بشِسْع [نعل] كليب. فلما بلغ الحارثَ فعلُه قال: نِعمَ القتيلُ بُجيرٌ أن أصلح بين هذين الغارَّيْن قتله، وسكنت الحرب به . وكان الحارث من أحلم الناس في زمانه . فقيل له إن

---

[1]- لا تستعار: أي لا تتغير.

[2]- الموسوعة العالمية للشعر العربي. 2011/10/18

مهلهلاً قال له حين قتله: بؤْ بشَسْع [نعل] كليب. فلما سمع هذا خرج مع بني بكر مقاتلاً مهلهلاً وبني تغلب، ثائراً ببجير"[1]، وأنشأ يقول:

قَرِّبا مربط النعامةِ مني إنّ بيعَ الكريم بالشِّسْع غالِ[2]
قَرِّبا مربط النعامةِ مني لَقِحَتْ حربُ وائلٍ عن حِيالِ[3]
لم أكن من جناتها . عَلم اللـــ ـــ ـــه ولكني بحرّها اليوم صالِ
لا بُجيرٌ أغنى فتيلاً، ولا رهـــ ـــ ـــط كليبٍ تَزاجروا عن ضلالِ[4]

"وكان يقال للحارث فارس النعامة. ثم جمع قومه، والتقى وبنو تغلب... فهزمهم، وقتلهم. ولم يقوموا لبكرٍ بعدها"[5].

ثانياً.5/ج: يوم ذي قار:

ثانياً.5/ج*: المعركة:

لما غضب كسرى أبرويز على النعمان بن المنذر، هرب النعمان إلى بني شيبان . وهم أعز بطون بكر وائل . فأتى سيدهم (هانئَ بن مسعود الشيباني)

---

[1]- الميداني. مجمع الأمثال. الجزء1. ص376

[2]- النعامة: اسم فرس الحارث.

[3]- لقحت عن حيال: شبه الحرب بالناقة حين تحيل وتطلب السفاد.

[4]- الأصمعيات. ص17-18

[5]- الميداني. مجمع الأمثال. الجزء1. ص376

فاستودعه ماله وأهله وولده، ثم هرب إلى أصهاره من بني طيء، فأبوا أن يمنعوه خوفاً من كسرى، فخرج حتى وضع يده في يد كسرى، فحبسه حتى مات.

فلما هلك النعمان، جعلت بكر بن وائل تغير على السواد، فأخذ كسرى في تعبئة الجيوش إليهم. ثم أرسل إلى هانئ بن مسعود، يطلب منه مال النعمان بن المنذر، ويطلب منه أن يرسل إليه عدداً من أمراء بني شيبان، يتخذهم رهينة عنده، فرفض هانئ بن مسعود. فاستعان كسرى بـ(إياس بن قبيصة الطائي) . وكان عامله على عين النمر وما والاها إلى الحيرة . فأتاه في صنائعه من العرب الذين كانوا بالحيرة، وعقد كسرى لهم الألوية، لقتال بني جلدتهم من بني بكر بن وائل[1].

"وأرسلت إياد إلى بكرٍ سراً، وكانوا أعواناً على بكرٍ مع إياس بن قبيصة: أيّ الأمرين أعجب إليكم: أن نطير تحت إبلنا فنذهب؟ أو نقيم حتى نفرّ حين تلاقون القوم؟"[2].

وتأهبت بنو بكر وسارت، بزعامة هانئ بن مسعود، إلى وادي ذي قار، على حدود العراق، وهناك أشار عليهم (النعمان بن زرعة) أن يلبوا طلب كسرى، خوفاً من الإبادة. لكن بكراً رفضت الأخذ بنصيحته، وأخذت تستعين بقبائل العرب وتستثير نخوتهم. فنصحهم (حنظلة بن ثعلبة بن سيار) . من بني عجل . برفض هذه النصيحة المسمومة من النعمان، وقال: فقبح الله هذا رأياً: لا تجر أحرار

---

[1]- انظر: الأصفهاني. الأغاني. الجزء24. ص54-62

[2]- هذه الزيادة من أبي عبيدة. أيام العرب. الجزء2. ص494

فارس غُرلَها ببطحاء ذي قار وأنا أسمع الصوت. ثم أمر بقبته فضُربت بوادي ذي قار[1]. "وآلى ألا يفرّ، حتى تفرّ القبة"[2].

وقبيل المعركة قال (ربيعة بن غزالة السكوني) للمقاتلين: لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها، ولكن تكردسوا لهم كراديس، فيشد عليهم كردوس، فإذا أقبلوا عليه شد الآخر.

وقال حنظلة بن ثعلبة: يا معشر بكر بن وائل، إن النِشَّاب الذي مع الأعاجم يعرفكم، فإذا أرسلوه لم يخطئكم، فعاجلوهم باللقاء.

ووقف هانئ بن مسعود خطيباً في قومه فقال: يا قوم، مهلكٌ معذور خير من نجاءٍ معرور. وإن الحذر لا يدفع القدر. وإن الصبر من أسباب الظفر. المنيّة ولا الدنيّة. واستقبال الموت خير من استدباره. والطعن في الثغر خير وأكرم من الطعن في الدبر. يا قوم، جدّوا فما من الموت بدٌّ.. فتحٌ لو كان له رجال.

وقال شريك بن عمرو: يا قوم، إنما تهابونهم أنكم ترونهم عند الحفاظ أكثر منكم، وكذلك أنتم في أعينهم. فعليكم بالصبر، فإن الأسنّة تردي الأعنّة. يا آل بكر، قُدُماً قُدُماً.

والتحم الفريقان، فما هو إلا أنت انتصف النهار، حتى قُتل صناديد الفرس وحلفاؤهم من العرب، وضرب الله وجوههم فانهزموا. وهرب إياس بن قبيصة حتى

---

[1]- انظر: الأصفهاني. الأغاني. الجزء24. ص62-66

[2]- هذه الزيادة من أبي عبيدة. أيام العرب. الجزء2. ص493

دخل المدائن، فسجنه كسرى حتى مات. وأتبعهم بنو بكر يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم، حتى دخلوا عليهم السواد.

وكانت وقعة ذي قار بعد وقعة بدر بأشهر، ورسولﷺ الله بالمدينة، فروي عنه أنه قال: هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نُصروا. كما روي أنهﷺ مثلت له الوقعة وهو بالمدينة، فرفع يديه فدعا لبني شيبان بالنصر، ولم يزل يدعو لهم حتى أُري هزيمة الفرس[1].

ثانياً.5/ج**: قصيدة الأعشى في يوم ذي قار:

ثانياً.5/ج**(أ): الشاعر:

هو ميمون بن قيس من بني بكر بن وائل، ويكنى أبا بصير. وسمي بالأعشى لعشىً كان في بصره، حتى قيل أبو بصير[2]. ويطلقون عليه اسم (أعشى قيس)، أو (الأعشى ميمون)، تمييزاً له عن شعراء آخرين لقبوا بالأعشى. وكان يقال لأبيه قتيل الجوع، لأنه دخل غاراً، فوقعت صخرة عظيمة فسدت فم الغار، فمات فيه جوعا.

يعتبر الأعشى أحد فحول الشعراء وأعلامهم في الجاهلية؛ إذ كانت له الكثير من القصائد الطويلة الجيدة، في المديح والهجاء وسائر فنون الشعر. وقد اعتبره

---

[1]- انظر: الأصفهاني. الأغاني. الجزء24. ص67-72.

[2]- كانت العرب إذا تفاءلت بالقبيح سمته بضده، فالأبرص أبرش، أو وضاح. والجميلة عنود أو جرباء. وهكذا.

القدماء أشعر الناس إذا طرب. ولكثرة ما غنى المغنون من شعره سُمي بـ(صناجة العرب). بل إن حماداً قدمه على سائر الشعراء. وكانت معشوقته (هريرة) مغنية. وهي التي يذكرها في مطلع معلقته، إذ يقول:

ودّعْ هُريرة، إنّ الرَّكْبَ مُرتحِلُ وهل تطيقُ وَداعاً أيّها الرَّجُلُ

وقال الشعبي إنه أغزل الناس في بيت، وأخنثهم في بيت، وأشجعهم في بيت: فأما أغزل بيت فقوله:

غراءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضُها تمشي الهوينىٰ كما يمشي الوجِي الوَحِل[1]

وأما أخنث بيت فقوله:

قالت هريرةُ لمّا جئتُ زائرَها ويلي عليك، وويلي منك يا رجُلُ

وأما أشجع بيت فقوله:

قالوا الطرادَ فقلنا تلك عادتنا أو تنزلونَ فإنّا معشرٌ نُزُلُ[2]

---

[1]ـ الغراء: البيضاء نقية العِرض. الفرعاء: طويلة الشعر والعنق. والعوارض: الأسنان، فهي مصقولة نظيفة لامعة. والوجِي الوحل: الحصان الذي يشتكي حافره، ومع ذلك فهو يمشي في الوحل متمهلاً متمايلاً.

[2]ـ الطراد: القتال فوق الخيل. والنُزُل: هم الذين يحسنون النزال، أي يطاعنون مواجهة دون ركوب.

وبلغ من شهرة شعره أن بعض الناس كان يسأله أن يشبب ببناته، ليعرفن في العرب فيُخطبن. وأراد أن يفد على النبيﷺ ليسلم، وأعد لذلك قصيدة في مديحه، فبلغ خبره قريشا فرصدوه على طريقه وقالوا: هذا صنّاجة العرب، ما مدح أحدا قط إلا رفع في قدره. فلما ورد عليهم قالوا له: أين أردت يا أبا بصير؟ قال: أردت صاحبكم هذا لأسلم. قالوا: إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك، وكلها بك رافق ولك موافق. قال: وما هن؟ فقال أبو سفيان بن حرب: الزنا. فقال الأعشى: لقد تركني الزنا ومما تركته. ثم ماذا؟ قال: القمار. قال: لعلي إن لقيته أن أصيب منه عوضا من القمار. ثم ماذا؟ قالوا: الربا. قال: ما دِنت ولا أُدنت. ثم ماذا؟ قالوا: الخمر. قال: أوه، أرجع إلى صبابة قد بقيت لي فأشربها. فقال له أبو سفيان: هل لك في خير مما هممت به؟ قال: وما هو؟ قال: نحن وهو الآن في هدنة ،فتأخذ مائة من الإبل وترجع إلى بلدك سنتك هذه، وتنظر ما يصير إليه أمرنا، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفاً، وإن ظهر علينا أتيته. فقال: ما أكره ذلك. فقال أبو سفيان: يا معشر قريش، هذا الأعشى، والله لئن أتى محمداً واتبعه ليضرمن عليكم نيران العرب بشعره، فاجمعوا له مائة من الإبل. ففعلوا. فأخذها وانطلق إلى بلده، فرمى به بعيره في الطريق، فمات[1].

ثانياً.5/ج**(ب): القصيدة:

يستهل الأعشى فخره المدوي برد أصل الخير إلى الأسلاف، فأبوهم على فراش الموت كان قد أوصاهم بمكارم ثلاث: إكرام الضيف، ورعاية حق الجار، والحرص على الموت في أرض المعركة:

---

[1]- انظر: الأصفهاني. الأغاني. الجزء9. ص127-148

1. إنّ الأعَزّ أبَانَا كَانَ قَالَ لَنَا أوصيكمو بثلاثٍ، إنّني تَلِفُ
2. الضّيْفَ أُوصِيكُمو بالضّيْفِ، إنّ لَهُ حَقّاً عليّ فَأُعْطِيهِ وَأعْتَرِفُ
3. وَالجَار أُوصِيكُمو بِالجَارِ، إنّ لَهُ يوماً منَ الدّهرِ يثنيهِ فينصرفُ
4. وَقاتِلوا القَوْمَ، إنّ القَتْلَ مَكْرُمَةٌ إذا تلوّى بكفّ المعصمِ العوفُ

ورغم تنفيذهم لوصايا الأب، إلا أنهم يعرفون كذلك أن البغي مصرعه وخيم، وأن العدوان لا يأتي بخير؛ من هنا فقد طلبوا من الفرس الصلح، نداً لند، لكن الفرس رفضوا الصلح بكل عنجهية، وسخروا منهم، وعّيروهم ببداوتهم الخشنة، وترحالهم المتكرر:

5. قلنا: الصّلاحَ، فقالوا لا نصالحكمْ أهلُ النُّبوكِ وعِيرٌ فوقها الخُصُفُ[1]

من هنا فقد كانت الحرب مفروضة، وكان النصر كذلك مفروضاً، لأن جيشهم كل أفراده أبطال يحرصون على الموت، نبتوا من أصول كريمة شجاعة لا تركن إلى الضيم:

6. وجند كسرى غداة الحنوِ صبحهم منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
7. فرعٌ نَمَتْهُ فروعٌ غير ناقصةٍ موفقٌ حازمٌ في أمرهِ أَنِفُ

لذا فقد فوجئ من رؤيتهم الأعداء، إذ رأوا أن مثلهم لا يُعاب ولا يسخر منه؛ فهم شبان فرسان مسلحون عقلاء، تغطيهم الدروع، وينتظمهم جيش لا يمكن القول

[1]- النبوك: التلال. العِير: الحمير، وتطلق على كل قافلة. الخُصف: القفف من الخوص.

بأنه مجرد نتاج لأناس متخلفين، لا يحسنون سوى ركوب الحمير؛ فهاهم يرونهم راكبين خيولهم مستعدين للكر والفر:

8. لَقَوا ململمةً شهباءَ يقدُمُها للموتِ، لا عاجزٌ فيها ولا خَرِفُ
9. فيها فوارسُ محمودٌ لقاؤهمو مثل الأَسنَّةِ لا مِيلٌ ولا كُشُفُ[1]

ولأننا نعلم أنهم كانوا مخدوعين فينا، ولا يعرفون من نحن في الميدان، فقد حرصنا على أن نكشف لهم وجوهنا من تحت المغافر، ليعرفوا أي داهية في انتظارهم:

10. لما التقينا كشفنا عن جماجمنا ليعرفوا أننا بكرٌ فينصرفوا

والحق أنهم عرفوا، لكن بعد فوات الأوان، بعد أن بدأ السيف يحصدهم. وإذ شعروا بأنهم باتوا الآن معرضين للإبادة، والانقراض عن وجه الأرض؛ فقد أخذوا يتباكون، ويناشدوننا أن نبقي منهم ما يعيد إنتاج سلالتهم في المستقبل. فلما أحسوا بأننا لا ننوي الإبقاء على أحد منهم، فضلوا الفرار:

11. قالوا: البقيّةَ. والهنديُّ يحصدهم ولا بقيّةَ إلا السيفُ، فانكشفوا[2]

---

[1]- الميل: الذين لا سلاح لهم، فهم عزل. والكُشُف: الذين لا دروع لهم، فهم مكشوفون أمام العدو.

[2]- تعود العرب في معاركهم أن يحرصوا على بقاء أحد من عدوهم حتى لا تزول القبيلة تماماً: إذ كان المهزوم ينادي عدوه قائلاً: أنشدك البقية.

ثم يعود الشاعر إلى وصف كيف بدأ القتالُ، بطريقة استجابت لتوجيه القائد حنظلة بن ثعلبة . عندما أمرهم بسرعة الالتحام بالعدو، تفادياً للتعرض لسهامهم من البعيد . فأعمل العرب سيوفهم في رقاب الفرس، حتى انقضى النهار ورؤوسهم تختطف من على رقابهم:

12. لما أمالوا إلى النشاب أيديَهمْ ملنا ببيضٍ فظل الهامُ يُختطَفُ[1]

ولكم أن تتخيلوا كم من فرسانهم مات، إذا ما علمتم بأن فرسان بكر ظلت تطحنهم من الصباح إلى منتصف النهار:

13. وخيل بكر فما تنفك تطحنهم حتى تولوا، وكاد اليومُ ينتصفُ

ولقد بلغ من سعة هذا الشرف المتحقق، يوم ذي قار، أنه كان كافياً لأن يوزع على كل قبائل معد العدنانية، فينال كل فارس في كل قبيلة منهم نصيبه من الشرف، دون أن ينقص ذلك من شرف الباقين:

14. لو أن كل معدٍّ كان شاركنا في يوم ذي قارَ ما أخطاهمُ الشرفُ

ونحن نلاحظ أن في البيت شماتة واضحة في بني طَيِّـيءِ، وإضراباً عن ذكرهم[2]، وإشارة إلى ما فاتهم من الشرف، إذ تخلفوا عن حماية صهرهم النعمان بن المنذر، حين التجأ إليهم فطردوه، خوفاً من كسرى[1].

---

[1]- النشاب: هي الأقواس التي تطلق السهام. والبيض: هي السيوف. والهام: هو الرأس.

[2]- أضرب عن ذكرهم، إذ توجه الكلام إلى بني معد بن عدنان، فيما طيىء قبيلة قحطانية.

الفصل الرابع
المعلقات

أولاً: سبب التسمية:

يقول عبد الرحمن المصطاوي، في مقدمة شرح المعلقات للزوزني:

"ابن الكلبي هو أول من سمى القصائد الطوال بالمعلقات. والقدماء لم يعرفوا هذا الاسم، ولم يبينوا شروط القصيدة، حتى تُعلق على الكعبة، وأقر بعد ذلك ابن عبد ربه الأندلسي ما ذهب إليه ابن الكلبي. واختلف القدماء حول هذا الرأي كثيراً"[2].

أما بروكلمان فيذهب إلى أن أول من سمى المعلقات بهذا الاسم هو حماد الراوية[3].

---

[1]ـ انظر: الأصفهاني. الأغاني. الجزء24. ص45. وانظر: الموسوعة العالمية للشعر. 2011/10/18

[2]ـ الزوزني. مقدمة شرح المعلقات السبع. ص11

[3]ـ انظر: كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. قسم1. ص125

وأيا من كان أول من أطلق هذه التسمية، فإنها تدل على تعظيم القدماء لها:

1. ربما إشارة إلى نفاستها إذ تعلق بالقلوب.
2. وربما بسبب ما قيل من أنها عُلقت على أستار الكعبة.
3. وربما لما قيل من أن الملك كان إذا استجاد قصيدة، قال علقوها في الخزانة، فاقتبسوا هذا التعبير وألصقوه على قصائدهم الأفضل.
4. وربما لأنها في جمالها تشبه عقداً تعلقه الجميلة على صدرها.

ربما لسبب واحد من هذه الأسباب، وربما لجميعها، وربما لما لا نعلمه منها. فليس كل ذلك مهماً، بقدر أهمية المعلقات ذاتها.

ثانياً: هوية المعلقات وعددها:

حول هوية المعلقات وعددها يقول كارل بروكلمان:

"ولا تتفق الروايات تماماً على قصائد المعلقات: فالقصائد المتفق عليها من الجميع خمس، هي معلقات: امرئ القيس، وطرفة، وزهير، ولبيد، وعمرو بن كلثوم"[1].

يبقى لنا، بعد هذه الخمس، خمسٌ أخرى، هي معلقات: عنترة، والحارث بن حلزة، والنابغة الذبياني، والأعشى، وعبيد بن الأبرص.

[1]. كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. القسم1. ص125

فأما المفضل الضبي . وهو أقوى الموثوقين . فيضيف، إلى الخمس الأولى، قصيدتي النابغة والأعشى.

وأما حماد الراوية . الذي يطعن فيه الكثيرون . فيخالف المفضل، ويحذف قصيدتي النابغة والأعشى، ويثبت بدلاً منهما قصيدتي الحارث وعنترة.

ولئن كنا لا نعلم سبب إثبات قصيدة عنترة، لدى حماد الراوية؛ لقد علمنا لم فعل ذلك بخصوص قصيدة الحارث . مع أن كلا القصيدتين لا ترقيان إلى مستوى قصيدتي النابغة والأعشى . ذلك أن الحارث بن حلزة هو من بني بكر، فيما حماد الراوية من مواليهم: فهو ينحاز قبلياً إلى جانب سادته البكريين، مغالبة لخصومهم بني تغلب[1]، وقد رأى قصيدة ملكهم، عمرو بن كلثوم، تطبق شهرتها الآفاق، ويلهج بروايتها القاصي والداني: إن بسبب أسلوبها الرائق، أو فخرها المدوي، أو بما أحاط بها من بطولة قائلها، وقد قتل ملك الحيرة على سرير ملكه.

وفي أواخر المائة الثالثة، جاء أبو زيد القرشي، الذي لا نعرف عنه تفاصيل صحيحة[2]، فألف كتابه المسمى (جمهرة أشعار العرب)، وجمع فيه، إلى جانب المعلقات، عدداً من القصائد الأخرى. وما يهمنا هنا هو أنه أثبت اختيار المفضل في المعلقات.

---

[1]- كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. القسم1. ص125-126

[2]- انظر: كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. القسم1. ص133

ثم جاء الزوزني، في منتصف القرن الخامس تقريباً (ت: 486هـ)، فألف كتابه في شرح المعلقات، وانحاز إلى اختيار حماد الراوية، فأثبت قصيدتي عنترة، والحارث.

فلما جاء (الخطيب التبريزي/ت:502هـ)، من بعدُ، ووجد بين يديه تسع قصائد، يتنازع الناس في قيمة أربع منها، استحب أن يخرج من هذا الخلاف . على طريقة الحل الوسط . بإثبات التسع جميعها، ثم إضافة عاشرة أخرى، هي قصيدة عَبيد بن الأبرص[1].

نخلص من كل ما سبق إلى ما يأتي:

1. أول من سمى المعلقات بهذا الاسم هو حماد الراوية، ولا نقطع برأي محدد حول سبب هذه التسمية.
2. الذي جعلها سبعاً هو حماد كذلك . ويظهر أن هذا العدد كان شائعاً . وقد عزز من هذا التحديد السباعي كل من أبي زيد القرشي والزوزني.
3. مجمل الاختلافات قبل الخطيب أدى إلى اعتبارها سبعاً أو تسعاً. والخطيب التبريزي هو من جعلها عشراً، بإضافة جديدة هي قصيدة عبيد بن الأبرص.
4. هناك خمس أجمع القدماء على أنها الأفضل، فلم يتنازعوا في كونها من المعلقات، وهي قصائد كل من: امرئ القيس، وطرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمى، ولبيد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم.

---

[1]- كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. القسم1. ص126

وسنختار هنا ثلاث معلقات، نشير بهما إلى غيرهما: الأولى للملك الضليل، والثانية لعمرو بن كلثوم، والثالثة لزهير بن أبي سلمى.

ثانياً.1: معلقة امرئ القيس:

ثانياً.1/أ: الشاعر:

هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي. يعتقد أنه ولد في أوائل القرن السادس الميلادي، وربما مات قبل ثمانين عاماً من هجرة النبيﷺ.

أبوه ملك كندة، وأمه فاطمة بنت ربيعة أخت المهلهل وكليب. وكانت قبيلته تأخذ الجزية ممن والاها من قبائل العرب. لكن بنو أسد ثاروا عليها وقتلوا حجراً الكنديَّ أباه، فلما جاءه الخبر . وكان على خمرٍ له . قال: ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً. لا صحو اليوم، ولا سكر غداً. ثم قضى حياته يحاول أن يجمع الجيوش لقتالهم، فقاتلهم في عدة أيام[1]، ثم رحل إلى بلاد الروم يطلب نصرة قيصر، تدلنا على ذلك قصيدته التي يقول فيها:

بَكى صَاحِبي لمّا رأى الدَّرْبَ دُونه وأيقنَ أنا لاحقانِ بقيصرا
فَقُلتُ لَهُ: لا تَبْكِ عَيْنُكَ إنّمَا نحاوِلُ مُلْكاً أو نُموتَ فَنُعْذَرَا[2]

---

[1]- انظر: ابن قتيبة. الشعر والشعراء. الجزء1. ص105-109

[2]- ابن قتيبة. الشعر والشعراء. الجزء1. ص118

ونظن ظناً، أنه إنما طمع في نصرة الروم، لما كان لقبيلته كندة من التنافس القديم مع الحيرة، وحلفائها الفرس. فقيل إن قيصر قد استقبله وأحسن وفادته، ثم خادعه فوعده بالنصر، وشجعه على الرحيل استعداداً للحاقِ الجيش الرومي به. ثم قيل إن قيصر كان سيفي له بوعده بالفعل، لولا وشاية وُشيت له، بأنه أقام علاقة مع ابنته، فلم يف له بما وعد، ومنحه بدلاً من ذلك حلة مسمومة ارتداها، فلما أن أوغل في الصحراء، بدأ لحمه يتساقط قطعاً، حتى مات[1]، فرووا عنه أنه قال في ذلك:

ولو أنّها نفسٌ تموتُ جميعةً ولكنها نفس تساقَطُ أَنْفُسَا[2]

غلب على امرئ القيس لقب (الملك الضليل) لما قضى حياته في اللهو والطرب وقول الشعر المليء بالتشبيب بالنساء والتهتك.

وتعتبر معلقتة امرئ القيس أجود الشعر العربي القديم، لما فيها من حسن التشبيه والتصوير. وقد ترك خلفه سجلاً حافلا من ذكريات الشباب وبطولات الفرسان. وضم ديوانه ما يقرب من مائة قصيدة ومقطوعة، يتبين فيها كم فتح هذا الشاعر من أبواب الشعر والمعاني الجديدة وتنوع الإغراض، بحيث اعتبره القدماء مثالا يقاس عليه، ويحتكم إليه[3].

---

[1]- انظر: ابن قتيبة. الشعر والشعراء. الجزء1. ص109

[2]- ديوان امرئ القيس. ص121

[3]- انظر: ابن قتيبة. الشعر والشعراء. الجزء1. ص105-136

ثانياً.1/ب: المعلقة[1]:

يبدأ امرؤ القيس معلقته بقوله:

1. قفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقطِ اللِّوى بينَ الدَّخولِ فحوملِ
2. فتوضِحَ فالمقراةِ لم يَعفُ رسمهاَ لما نسجتْها من جَنُوب وشمألِ[2]
3. ترى بَعَرَ الأرْآمِ في عَرَصاتِها وقيعانها كأنه حَبُّ فُلْفُلِ

فهو يبدأ باستيقاف صاحبيه، ويطلب منهما مواساته، بالبكاء معه على أطلالٍ كانت، ذات يوم، أماكن سكنها الحبيب فدرست، وهو الآن يصفها.

ورغم ما نقلناه من اعترافه بأنه اقتدى في ذلك بابن خذام، إلا أن القدماء عدوا هذا المطلع من مبتكرات امرئ القيس، فقالوا: "سبق العرب إلى أشياء ابتدعها واستحسنتها العرب، واتبعته فيها الشعراء: استيقاف صحبه، والتبكاء في الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ. وشبه النساء بالظباء والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وقيّد الأوابد، وأجاد في التشبيه، وفصل بين النسيب وبين المعنى"[3].

ثم يتطرق إلى ذكر حالته يوم رأى قوم المحبوبة راحلين بها، فيقول بأنه كان في ذلك يشبه رجلاً يجتني من الشجر الحنظل الشديد المرارة:

---

[1]- انظر: أبي زيد القرشي. جمهرة أشعار العرب. ص113-147

[2]- سقط اللوى والدَخول وحومل وتوضح والمقراة كلها أسماء أماكن.

[3]- ابن سلام. طبقات فحول الشعراء. ص55

4. كأني غَداةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَلّوا لدى سَمُراتِ الحَيّ ناقِفُ حنظلِ[1]

ثم يعود ليذكر، أن صاحبيه قد أطاعاه، فوقفا معه على رواحلهم وأخذوا يواسونه:

5. وُقوفاً بها صَحْبي عليَّ مَطِيَّهُمْ يقُولون لا تهلكْ أسىً وتجمّلِ

لكن دموع عينيه تفيضان مجدداً، حتى تبل راحلة ناقته:

6. ففاضَت دُموعُ العينِ منّي صَبابَةً عَلى النَحرِ حتى بَلَّ دَمعِيَ مِحمَلي

وبعد هذه المقدمة التي لا بد منها، يعرج امرؤ القيس على ذكر واحدة من مغامراته النسائية. فبعد أن حيث عقر ناقته ليطعم الجميلات، أخذ يسرد واحدة من تهتكاته:

7. ويوم دخلت الخِدرَ خِدر عُنيزةٍ فقالت لك الويلات إنكَ مُرجلي[2]
8. تقولُ وقد مالَ الغَبيطُ بنا معاً عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزلِ[3]
9. فقلتُ لها سيري وأرْخي زِمامَهُ ولا تُبعديني من جَناكِ المُعَلَّلِ

---

[1]- السمُرات مفردها سَمُرة. وهي الشجرة العظيمة.

[2]- لك الويلات: تتدلل عليه إذ تتهدده. ومرجلي: ستتسبب بموت راحلتي، فتجعلني راجلة بعد أن كنت راكبة.

[3]- الغبيط: الهودج.

ويظهر لنا أن امرأ القيس إنما أراد بذكره هذه الحادثة أن يثير غيرة محبوبته فاطمة، إذ نراه يلتفت إليها من بعدُ قائلاً:

10. أفاطِمُ مهلاً بعضَ هذا التدلّلِ وإن كنتِ قد أزمعت صرمي فأجملي
11. وَإنْ تكُ قد ساءتكِ مني خَليقةٌ فسُلّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُلِ
12. أغَرّكِ مني أنّ حُبّكِ قاتِلي وأنّكِ مهما تأمري القلب يفعلِ
13. ومَا ذَرَفَتْ عَيْناكِ إلا لتَضْرِبي بسَهمَيكِ في أعشارِ قَلبٍ مُقَتَّلِ

وكأنه رأى أنها لا تظهر له حباً كحبه . على عادة النساء في التدلل وقولهن ما لا يعنين . فاستأنف ذكر تفاصيل مثيرة من إحدى غزواته النسائية الليلية؛ إذ نراه يطيل في وصف محاسن المرأة التي طرقها ليلاً، بأسلوب حسي شديد التهتك: "فهو يذكر خدرها وأحراسها ومنعتها، وكيف وصل إليها وقد استعدت للنوم، وما كان بينه وبينها من حوار، وكيف أطاعته وخرجت معه من الحي، إلى مكان بعيد لا تراهما فيه العيون، وكيف كانت تعفّي آثار أقدامها بأذيال ثوبها الموشّى"[1] فمن ذلك قوله:

14. وبيضةِ خدرٍ لا يُرامُ خباؤها تَمَتّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعجَلِ
15. تجاوزْتُ أحْراساً إلَيها ومَعْشَراً عليّ حِراصاً لو يُسرّون مقتلي
16. فجِئْتُ وقد نَضَّتْ لنَوْمٍ ثيابَها لدى السِّترِ إلاَّ لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ
17. فقالت يمين الله ما لكَ حيلةٌ وما إن أرى عنك الغوايةَ تنجلي
18. فقمتُ بها أمشي تجر وراءنا على إثرنا أذيال مرطٍ مُرَحّلِ

[1]. شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص250.

19. هصرتُ بِفوديْ رأسِها فتمايلت عليَّ هضيمَ الكَشحِ رِيّا المُخَلخَلِ

وبعد أبيات عديدة من هذا الوصف الحسي الشهواني ينتقل امرؤ القيس إلى وصف حالته البائسة وطول ليله، ممهداً بذلك للانتقال إلى موضوع جديد، برقة لا تدع السامع يشعر باختلاف الموقف، فيقول.

20. تَسَلَّت عِماياتُ الرِجالِ عَنِ الصِبا وَلَيسَ فُؤادي عَن هَواكِ بِمُنسَلِ

وهذا هو ما كان النقد القديم يسميه (حسن التخلص).

وبعد هذا التمهيد الضروري، نراه يعرج على وصف حالته مع الليل الطويل، قائلاً:

21. وليل كموج البحر أرخى سدولهُ عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي
22. فَقُلْتُ لَهُ لما تَمَطّى بصلبهِ وأردَف أعجازا وناءَ بكلْكلِ
23. ألا أيّها اللّيلُ الطّويلُ ألا انْجَلي بصُبْحٍ وما الإصْباحَ مِنك بأمثَلِ
24. فيا لكَ من ليلٍ كأنَّ نجومهُ بكل مغار الفتل شُدتْ بيذبلِ

وهنا فقط يأتي الدور على ذكر رحلة الصيد، لعلها تساعده على النسيان، فيقول في وصف الفرس، التي عليه أن يمتطيها لملاحقة الطرائد:

25. وَقَد أَغتَدي وَالطَيرُ في وُكُناتِها بِمُنجَرِدٍ قَيدِ الأَوابِدِ هَيكَلِ
26. مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُدبِرٍ مَعاً كَجُلمودِ صَخرٍ حَطَّهُ السَيلُ مِن عَلِ
27. كُمَيتٍ يَزِلُّ اللِبدُ عَن حالِ مَتنِهِ كَما زَلَّتِ الصَفواءُ بِالمُتَنَزَّلِ

28. لهُ أيطلا ظبيٍ وساقا نعامة وإرخاء سرحانٍ وتقريبُ تنفلِ

فلا جرم أدهش القدماء هذا الوصف الرائع للفرس: فهو قيد يقيد الوحوش، فكأنه بسرعته يملأ الأرض عليها، ويمنعها من الحركة، فكلما تحركت، وأينما ولت، فثم الفرس الذي يكر ويفر في آن معاً، مثل جلمود الصخر الهابط من أعلى الشلال، بحيث لا يمكن لفارس أن يستمسك على ظهره، وما ذاك إلا لأن ساقيه في دقتهما ساقا نعامة، وخاصرتاه ضامرتان كما لو كان ظبياً برياً، ويهوي في الأرض كامناً كمون الذئب استعداداً للانقضاض على الفريسة، ويقفز كالثعلب الخائف.

ثم يستطرد في وصف تعرضه لسرب من البقر الوحشي، وكيف قيد فرسه السرب حتى استطاع أن يصطاد بعضاً منه، معرجاً من بعد على طهيه وشيه فيقول:

29. فعنَّ لنا سربٌ كأنَّ نعاجَه عَذارَى دَوارٍ في مُلاءٍ مُذَيَّلِ
30. فَعادى عِداءً بَينَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ دِراكاً ولم يَنْضَحْ بماءٍ فيُغسَلِ
31. وظلّ طُهاة اللّحمِ من بينِ مُنْضِجٍ صَفيفَ شِواءٍ أوْ قَديرٍ مُعَجَّلِ

وقبل نهاية القصيدة ينتقل امرؤ القيس إلى تصوير بعض مظاهر الطبيعة من حوله، فيخص البرق والمطر والسحاب المتراكم والنباتات والأزهار والسيول، ويجعل ضوء البرق يشبه مصابيح راهب متبتل في صومعته في الصحراء:

32. أحارِ، ترى برقاً أريك وميضَهُ كلمع اليدينِ في حبيٍّ مُكلل[1]

[1]- حارِ: ترخيم حارث، فهو يقول: يا حارث. والحبيّ والمكلل يعني المتراكم الداني من الأرض.

33. يُضيءُ سَناهُ أوْ مَصَابيحُ راهِبٍ أهان السليط في الذُّبال المفتَّلِ[1]

34. وتيماءَ لم يترُك بها جِذع نخلة وَلا أُطُماً إلا مَشيداً بجَنْدَلِ[2]

ثانياً.2: معلقة عمرو بن كلثوم:

ثانياً.2/أ: الشاعر:

ينتمي عمرو بن كلثوم إلى قبيلة تغلب، فهو ملكها وسيدها وابن سادتها، فأبوه كلثوم بن عتاب، أحد الفرسان والسادة المشهورين في الجاهلية، وأمه ليلى بنت المهلهل، فارس تغلب وسيدها ومشعل حرب البسوس. أما عمرو فقاتل عمرو بن هند، ملك الحيرة، وسط أتباعه وعلى سرير ملكه، ولذا يضرب به المثل في الفتك فيقال: "أفتك من عمرو بن كلثوم"[3]. قال صاحب الأغاني:

"إن عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه: هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ فقالوا: نعم، أم عمرو بن كلثوم. قال: ولم؟ قالوا: لأن أباها مهلهل بن ربيعة، وعمها كليب وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو وهو سيد قومه. فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره، ويسأله أن يزير أمَّه أمَّه... فدخل عمرو بن كلثوم على عمر بن هند في رواقه، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق... وقد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحي الخدم، إذا دعا

---

[1]- السليط هو الزيت الذي يضاء به القنديل. والجندل هو حجر الصخر.

[2]- الأطم هي البيوت.

[3]- الميداني. مجمع الأمثال. الجزء2. ص89- 90

بـالطُرَف، وتسـتخدم ليلـى. فدعا عمرو [بـن هنـد] بمائدة ثـم دعـا بـالطُرَف. فقالت هند: نـاوليني يـا ليلـى ذلك الطبق. فقالت ليلـى: لتقم صـاحبة الحاجـة إلـى حاجتهـا. فأعـادت عليهـا وألحـت. فصـاحت ليلـى: واذلاه، يـا لتغلـب. فسمعها عمرو بن كلثوم، فثار الدم في وجهه، ونظر إلى عمرو بن هند، فعرف الشر في وجهه، فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيف لعمرو بن هند . معلق بـالرواق ليس هنـاك سيف غيره . فضـرب بـه رأس عمـرو بـن هنـد، ونـادى في بنـي تغلـب، فانتهبوا مـا في الرواق، وسـاقوا نجائبـه، وسـاروا نحـو الجزيرة"[1].

ثانياً.2/ب: المعلقة[2]:

مما سبق يتبين لنا كم هي متمردة شخصية عمرو بن كلثوم، لا تنحني أمام عواصف السائد، لأن من طبيعتها الثورة عليه، بحثاً عن عالم أفضل.

وتمرد عمرو في الحياة، يقود قصيدته إلى تمرد على عمود الشعر وعاداته المقننة: فلأول مرة نرى شاعراً قديماً، من السادة، لا يقف على الأطلال، وقد كنا سنقبل شيئاً من هذا لو صدر عن أحد الشعراء الصعاليك، لما عُرف عنهم من ثورة على كل ما هو راسخ.

وإنه لمما يلقي بعضاً من الضوء على شدة هذا التمرد، أن نتذكر أن من أوجد هذا السَنن الشعري كان الملك الضليل، الذي يمت بصلة القرابة، من جهة الأم،

---

1. الأصفهاني. الأغاني. الجزء11. ص56

2. انظر: الزوزني. شرح المعلقات السبع. ص173-195

إلى عمرو بن كلثوم[1]، وكان الجدير بشاعر عادي . غير عمرو . أن يحذو حذوه، خصوصاً وأن كلاهما ملك، من سلالة فرسان شعراء. لكن التمرد عند عمرو بن كلثوم يأبى إلا أن يفصح عن نفسه في الشعر، كما أفصح عن نفسه في مناسبة قيل القصيدة. فيستهل قائلاً:

1. أَلاَ هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِيْنَا وَلاَ تُبْقِي خُمُوْرَ الأَنْدَرِيْنَا[2]
2. مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فِيْهَا إِذَا مَا المَاءَ خَالَطَهَا سَخِيْنَا[3]
3. تَجُوْرُ بِذِي اللَّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِيْنَا[4]
4. ترى اللَّحِزَ الشحِيْحَ إِذَا أُمِرَّتْ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيْهَا مُهِيْنَا

1. فهو لا ينسى من هو، حتى عند الحديث عن الحب، فلا يقف ولا يستوقف، كما أنه لا يبكي ولا يستبكي.
2. وهو يتوجه بالحديث إلى جارية ساقية تطوف بالخمر، بدلاً من أن يتوجه إلى مخاطب بصيغة المثنى، كما جرت العادة من قبل، وكما ستظل جارية من بعدُ، إلى زمن طويل.
3. وهو يبدأ بذكر الخمر ووصفها، ووصف آثارها المادية والمعنوية على شاربها.

---

[1]- ذلك أن فاطمة أم امرئ القيس هي أخت المهلهل وكليب، فيما ليلى أم عمرو بن كلثوم هي ابنة المهلهل. فأم أمرئ القيس هي عمة ام عمرو بن كلثوم.

[2]- اصبحينا: أي قدمي لنا خمر الصباح. والأندرين: منطقة شرق الأردن كانت مشهورة بإنتاج أجود الخمور.

[3]- المشعشعة: الصافية الرقيقة. والحُص: نبات أصفر. وسخينا: الماء الساخن، فهو منصوب على الحال.

[4]- ذو اللبانة: صاحب الحاجة. فالخمر تحيد به عن حاجته إلى الحانة.

كل هذا يفعله امرؤ القيس قبل أن يلتفت باللوم على الساقية . أم عمرو . فيتهمها بأنها أدارت دور كأس الخمر، بطريقة غير معهودة، إلى جهة اليسار، مع أن العادة قد جرت بأن الساقي يدور بها جهة اليمين:

5. صَبَنْتِ الكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو وَكَانَ الكَأْسُ مَجْرَاهَا اليَمِيْنَا

وما صبنتها إلا لما تعلم من إدلالها عليه، إذ تبدي له خلاف ما تكتم من الإعجاب، وبذا تشجعه وتهيئ القصيدة لضرورة أن يبدأ الشاعر بتعريف نفسه من جديد:

6. وَمَا شَرُّ الثَّلاَثَةِ أُمَّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكِ الذِي لاَ تَصْبَحِيْنَا

ومن هنا يبدأ بالتعريف، وذكر مغامراته في الشرب والحب والقتال، فيقول في البداية مستهلاً:

7. وَكَأْسٍ قَدْ شَرِبْتُ بِبَعْلَبَكٍّ وَأُخرَى في دِمشْقَ وَقَاصرِيْنَا
8. وَإِنَّا سَوْفَ تُدْرِكُنَا المَنايَا مُقَدَّرَةً لنا وَمُقَدِّرِيْنَا

ثم يحاول أن يحسن التخلص إلى موضوع آخر، هو وصف المحبوبة، فيلتفت معاتباً إياها، في البداية، قائلاً:

9. قِفِي قَبْلَ التفرُّقِ يا ظَعِيْنا نُخَبِّرْكِ اليَقِينَ وَتُخْبِرِيْنَا
10. قِفِي نسْأَلْكِ هل أَحدَثْتِ صَرْماً لِوَشْكِ البيْنِ أَمْ خُنتِ الأَمِيْنَا

ويستغل هذه اللحظة من العتاب ـ والعتاب غير بعيد عن الحب والمحبوبين . ليلتفت مرة أخرى، مغيراً ضمير الخطاب، فيتوجه إلى من يسمع نشيده، ليمتعه بوصف جسد المحبوبة، وصفاً حسياً يليق بالموقف، فنحن في موقف خمر، ولهو وساقية. وهو بهذا يريد أن يوضح أن فارساً مثله جدير به ألا يعشق إلا أجمل النساء، فيقول:

11. تُرِيْكَ إِذَا دخلتَ عَلَى خَلاَءٍ وَقَدْ أَمنتْ عُيُوْنَ الكَاشِحِيْنَا
12. ذِرَاعِي عَيْطَلٍ أَدَمَاءَ بِكْرٍ هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرأ جَنِيْنَا[1]
13. وسَارِيَتِي بَلَنْطٍ أَو رُخَامٍ يَرِنُّ خَشَاشُ حَلِيهِمَا رَنِيْنَا

ورغم كل هذا الوصف الحسي المغرق في شهوانيته، إلا أن الشاعر مدرك أنه ما يزال بين يدي مقدمة ينبغي أن تهيئ لما وراءها من موضوع أصلي هو الفخر. ولكي يمهد للفخر، كان لا بد أن يتذكر أيامه الماضية، فيقول:

14. تَذَكَّرْتُ الصِّبَا وَاشْتَقْتُ لَمَّا رَأَيْتُ حُمُوْلَهَا أُصُلاً حُدِيْنَا[2]

وإذ بدا الآن أنه قد آن أوان الفخر المدوي، نجد الشاعر يحسن التخلص مرة أخرى بالانتقال إلى عالم الغيب، كأنه يريد أن يقول: هذا حديث نسوقه الآن، لنبين أن الأيام تدور بالناس، فتجري بهم الأحداث، فينسونها بعد حين، ثم تأتي مناسبة

---

[1]ـ العيطل: الناقة طويلة العنق. أدماء: شديدة البياض. هجان: بيضاء. تقرأ: تضم.

[2]ـ أُصُلاً: جمع أصيل، وهو آخر النهار. حُدين: مبني للمجهول من حدا حداءً: وهو الغناء أمام القافلة.

ما تبعث ذكريات الماضي، ويحلو للمرء أن يتذكرها، خصوصاً إذا كانت ذكريات أجمل فترة في الحياة، فترة الشباب.

ها هي ذي إذن فترة الشباب تنقضي، وها نحن نتذكرها. وآهٍ من هذه الذكريات. وآهٍ من هذا الدهر الذي لا يدع شباباً يدوم. ومن يعلم ماذا تخبئ له الأيام:

15. وإنّ غداً وإنّ اليومَ رهنٌ وبعدَ غدٍ بما لا تعلمينا

وهكذا يصبح الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام الفخر المدوي، فيقول مخاطباً قتيله الملك عمرو بن هند:

16. أَبَا هِنْدٍ، فَلاَ تَعْجَلْ عَلينا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ اليَقِيْنَا
17. بِأَنَّا نُوْرِدُ الرَّايَاتِ بِيْضاً وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قَدْ رُوِيْنَا
18. وَأَيَّامٍ لَنَا غُرٍّ طِوَالٍ عَصَيْنَا المَلْك فِيهَا أَنْ نَدِيْنَا
19. وَسَيِّدِ مَعْشَرٍ قَدْ تَوَّجُوْهُ بِتَاجِ المُلْكِ يَحْمِي المُحْجَرِيْنَا
20. رَكْنَا الخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَهَا صُفُوْنَا

تمهل أيها الملك الجبار، لنخبرك حقاً كيف نورد راياتنا الحرب بيضاً، فنرجع بها حمراء وقد ارتوت من دماء الأعداء. فمعاركنا أيام شرف، تروي عصياننا للملوك؛ ولطالما تركنا كل جبار . كان يظن أنه يحمي من يلوذ به . ملقى على الأرض، صريع سيوفنا، والخيل واقفة ساهمة حوله، تشاركه ألم موته والفراق.

وبعد أن يذكر كيف أنزلت قبيلته بيوتها في كل منزل ترغب فيه، نافية منه أهله، وتاركة إياهم أذلاء مشذبة قناتهم؛ يعلل ذلك بشدة قوة قبيلته، فهي طاحون يطحن كل ما يليها:

21. مَتَى نَنْقُلْ إِلَى قَوْمٍ رَحَانَا يَكُوْنُوا فِي اللِّقَاءِ لَهَا طَحِيْنَا

وهذه الرحى الأسطورية تعم الجزيرة العربية كلها:

22. يَكوْنُ ثِقَالُهَا شرْقِيَّ نَجْدٍ وَلُهْوَتُهَا قُضَاعَةَ أَجْمَعِيْنَا[1]

ويستغل الفرصة ليسخر من كل من طلب عداوتهم، إذ يشبههم بأضياف حلوا فطلبوا القِرى. ورغم أن هذا الكلام يسرد لنا بعض معارك تغلب مع أعدائها، في زمن مضى، إلا أن مناسبة ذكره قد حلت، بسبب من محاولة الملك القتيل أن يسخر منهم. لقد طلبت القبائل من أعداء تغلب في الماضي القرى، فبُذل لهم حرباً طاحنة، كما هو حال عمرو بن هند الآن:

23. نَزَلْتُمْ مَنزِلَ الأَضيَافِ مِنَّا فَأَعْجَلنا القِرَى أَنْ تَشْتِمُوْنَا
24. قَرَيْنَاكُمْ فَعَجَّلْنَا قِرَاكُمْ قُبيلَ الصُّبْحِ مِرْدَاةً طَحُوْنَا

ولكي لا يترك الشاعر في صدر السامع أثارة من شك في عدالة موقفه، يعمد إلى تبيان أن ضغينة قومه، على أعدائها، متراكمة منذ وقت بعيد، مما يشي بأنها

---

[1]ـ الثفال: قطعة القماش التي توضع تحت الطاحون. واللهوة: القبضة من الشيء تلقى في الطاحون.

صبرت على نذالات الآخرين طويلاً، قبل أن ينفد صبرها، ويخرج حقدها الدفين، فيقول هذا البيت، الذي طالما تمثل به الناس من بعد:

25. وَإِنَّ الضِّغْنَ بَعْدَ الضِّغْنِ يَبْدُو عَلَيْكَ وَيُخْرِجُ الدَّاءَ الدَّفِيْنَا

ويسرف في الفخر، حتى يتحدى جميع الناس:

26. حُدَيَّا النَّاسِ كُلِّهِمو جَمِيْعاً مُقَارَعَةً بَنِيْهِمْ عَنْ بَنِيْنَا

ثم يلتفت إلى عمرو بن هند قائلاً:

27. بِأَيِّ مَشِيْئَةٍ عَمْرُو بْنَ هِنْدٍ نَكُوْنُ لِقَيْلِكُمْ فِيْهَا قَطِيْنَا[1]

28. بِأَيِّ مَشِيْئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ تُطِيْعُ بِنَا الوُشَاةَ وَتَزْدَرِيْنَا

ثم يسخر من تهديده، وطلبه أن يتحول بنو بكر إلى خدم لأمه، فيقول له: أتهددنا؟. مهلاً بعض هذا التهديد، وقلل من هذا الوعيد، فمتى كنا نقبل تهديداً من أحد؟ ومتى كنا خدماً لأمك؟:

29. تهددُنا؟ وأوعِدْنا رُوَيْداً مَتَى كُنَّا لأُمِّكَ مَقْتَوِيْنَا؟[2]

ألم تعلم بأن عزتنا لا ترام، وأننا كلما تعرضنا للذل ازددنا عصياناً، وانقلبنا على ذلك بقهر كل من تعرض لنا بذلك:

---

[1]- القيل: العبيد. والقطين: المجاور. أي: متى جاورنا عبيدكم، حتى تأمرونا كما تأمرونهم؟.

[2]- المقتوي: هو خادم الملك.

30. فَإِنَّ قَنَاتنا يا عَمروُ أَعْيَتْ عَلى الأَعْدَاءِ قَبلكَ أَنْ تَلِيْنَا
31. إِذَا عضَّ الثقافُ بها اشْمَأَزَّتْ وَوَلَّتهُ عَشَوْزَنَةً زَبُوْنَا[1]
32. عَشَوْزَنَةً إِذَا انْقَلَبتْ أَرَنَّتْ تشُجُّ قَفا المُثَقفِ وَالجَبِيْنَا

وكيف تفعل، ونحن من سلالة العظماء، مهلهل وكليب وعتاب وكلثوم وكثيرين غيرهم؟. هؤلاء الأبطال الذين جعلوا اقتحام حصون الأعداء دينا لنا متبعاً!. ثم يبلغ الفخر مداه الأوسع، حين يبدأ في سرد قصة إحدى معارك قومه . وحلفائهم من أبناء عمومتهم . مع أعدائهم، حيث صال كل فريق صولته في الجانب المقابل، ورجع بما يشتهيه: ففي حين آب أبناء العمومة بالغنائم، رأت تغلب أن أفضل المجد أسر الملوك:

33. وَكُنَّا الأَيْمَنِيْنَ إِذَا التَقَيْنَا وَكَانَ الأَيْسَرِيْنَ بَنُو أَبَيْنَا
34. فَصَالُوا صَوْلَةً فِيْمَنْ يَلِيْهِمْ وَصُلْنَا صَوْلَةً فِيْمَنْ يَلِيْنَا
35. فَآبُوا بِالغنائمِ وَبِالسَّبَايَا وَأُبْنَا بِالمُلُوْكِ مُصَفَّدِيْنَا

وتمتد مفاخرة الشاعر لتشمل كل إخوانه من قبائل معد بن عدنان، فهم يعلمون أن تغلب أمنعها وأقواها وأقدرها على نول ما تريد: فهم يحمون من يطيعهم، ويهلكون من يعصيهم. وهم يدعون ما لا يعجبهم، ويأخذون ما يعجبهم، أياً كان صاحبه. وهم يطعمون إذا شبعوا، ويهلكون إذا جاعوا. بل إنهم أول الناس وروداً للماء، فلا يقدر أحد أن يرد حتى يصدروا:

---

[1]. الثقاف: الآلة التي يقوم بها الرمح. واستعارتها العرب للعزة. وعشوزنة: صلبة. وزبون: شديدة الاندفاع.

36. وَقَدْ عَلِمَ القَبائِلُ مِنْ مَعَدٍّ إِذَا قُببٌ بِأَبطَحِهَا بُنِيْنَا[1]
37. بأنّا المطعمون إذا قدرنا وأنّا المهلكون إذا ابتُلينا
38. وأنّا المانعون لما أردنا وأنّا النازلون بحيث شينا
39. وَأنّا التَّارِكُوْن ِ لِمَا سَخِطْنَا وأنّا الآخِذُوْنَ لِمَا رَضِيْنَا
40. وأنّا العاصمون إِذَا أُطِعْنَا وأنّا العَازِمُوْنَ إِذَا عُصِيْنَا
41. ونشربُ إن وردنا الماء صفواً ويشربُ غيرنا كَدِراَ وطينا

ثم يدخر أعتى المبالغات لآخر القصيدة، مقرراً أن تغلب لم تملأ البر فحسب، بل ملأت البحر سفناً كذلك. من هنا فلا ينبغي لأحد أن يتعجب إذا ما قلنا بأن قوتنا بلغت أن يخر الجبابرة لصبياننا، ما إن يبلغ واحدهم الحلم. أقروا بهذا، ولا يعتدينّ أحد منكم علينا، فنعتدي عليه بأكثر مما فعل:

42. مَلأْنَا البَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَماءَ البَحْرِ نَمْلَؤُهُ سَفِيْنَا
43. إِذَا بَلَغَ الفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخِرُّ لَهُ الجَبَابِرُ سَاجِدِيْنَا
44. أَلاَ، لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِيْنَا

والجهل هنا بمعنى العدوان. وأما رد الجهل بالجهل فمعلوم من لغة العرب وأمثالهم، فهم الذين يقولون: "الحديد بالحديد يفلح"[2].

---

[1]ـ القبب: مفردها قبة:، وهي الخيمة الكبيرة وتكون في العادة لسيد القوم. والأبطح: الأرض الواسعة الخالية. وكانت العرب تقيم القبب لزعمائها في المشاهد الكبرى، في المعارك ومواضع المفاخرة في الأسواق.

[2]ـ انظر: الميداني. مجمع الأمثال. الجزء2. ص230

يجدر بالذكر هنا أنه لا فخر بالجهل، بل إن هذا يأتي من باب المشاكلة، وهو في القرآن معروف، من مثل قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1].

ثانياً.3: معلقة زهير بن أبي سلمى:

ثانياً.3/أ: الشاعر:

هو زهير بن أبي سُلمى . بضم السين . المزني من مضر. وليس في العرب اسم سُلمى لغير زهير[2]. أبوه من قبيلة مزينة. فهو مزني الأب، ذبياني الأم. وقد أخطأ من نسبه إلى غطفان، وإنما نشأ في أخواله الذبيانيين، مع أبيه وأمه، بعد أن هجر أبوه قبيلته الأصلية . مزينة . لسبب من الأسباب. ولأن ذبيان بطن من بطون غطفان، فقد وهم بعض الرواة إذ جعلوا زهيراً غطفانياً[3].

عاش زهير في كنف خاله بشامة بن الغدير. وكان بشامة هذا سيداً في قومه شريفاً مطاعاً كثير المال. "ولم يكن له ولد. فلما حضرته الوفاة، جعل يقسم ماله في أهل بيته، وأعطى زهيراً نصيباً منه. ويروى أنه قال له: إني أعطيتك ما هو

1- آل عمران. الآية 54

2- انظر: الخطيب التبريزي. شرح القصائد العشر. ص161

3- انظر: شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص300-301

أفضل من المال. فقال زهير: وما هو؟. فقال له: شعري. وهو لم يرث عنه شعره وماله فقط، بل ورث عنه أيضاً خُلُقَه الكريم"[1].

ثانياً.3/ب: مكانة زهير بين الشعراء:

يعتبر زهير مؤسس مدرسة الصياغة الشعرية. وقد عرف له ذلك اللاحقون، وأثنوا عليه به. ولعل أنجب تلاميذ هذه المدرسة ابنه كعب، وتلميذاه الحطيئة والفرزدق. بل إن جريراً نفسه يعترف بفضل هذه المدرسة وتقدمها. فقد نقل ابن سلام عن عكرمة بن جرير أنه سأل أباه، فقال: "قلت لأبي: يا أبه، من أشعر الناس؟. قال: أعن أهل الجاهلية تسألني، أم أهل الإسلام؟. قلت: ما أردت إلا الإسلام، فإذْ ذكرتَ أهل الجاهلية، فأخبرني عن أهلها. قال: زهيرٌ شاعرها. قال: قلت: فالإسلام؟. قال: الفرزدق نبعة الشعر"[2].

ولا غرابة في هذا، فزهير معروف بأنه لم يكن يكتفي بنظم قصيدته على السليقة، كما كان يفعل الكثير من الشعراء، بل يحوكها وينظمها ويوشيها، كما توشى الثياب بالحرير، ويتمهل في إخراجها إلى الناس، فلا يسمعونها إلا بعد أن يعرضها على النقاد، ويستفيد من نقدهم، فيغير له ما بدا أن يغير، ثم يخرجها بعد حول كامل من المراجعة والتصحيح. لهذا قيل إنه مؤسس مدرسة الصياغة الشعرية، كما قيل إنه أحد عبيد الشعر.

---

[1]- شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص302

[2]- ابن سلام. طبقات فحول الشعراء. السفر الأول. ص64-65

وكان عمر بن الخطاب يقدمه على كل الشعراء في الجاهلية، وقد روى ابن سلام عنه قوله في زهير إنه أشعر الشعراء[1]، معللاً حكمه هذا بأن زهيراً "كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتبع وحشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه"[2]. وقد مال ابن سلام إلى هذا الرأي، حين قال:

"وقال أهل النظر: كان زهير أحصفهم شعراً، وأبعدهم من سخف، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق، وأشدهم مبالغة في المدح، وأكثرهم أمثالاً في شعره"[3].

ولئن صدق ابن سلام في هذا القول إلى حد كبير، فلقد أخطا في واحدة منه حين قال: أشدهم مبالغة في المدح. فقد نقلنا عن عمر رضي الله عنه أن زهيراً كان لا يمدح الرجل بما فيه.

ثانياً.3/ج: المعلقة[4]:

ثانياً.3/ج*: مناسبة القصيدة:

قال زهير هذه المعلقة يمتدح بها هرم بن سنان والحارث بن عوف، حين سعيا بالصلح بين عبس وذبيان، في حربهما المشهورة . داحس والغبراء . وأعلنا تحملهما

---

1. ابن سلام. السفر الأول. ص56
2. ابن سلام. السفر الأول. ص63
3. ابن سلام. السفر الأول. ص64
4. انظر: الزوزني. شرح المعلقات السبع. ص109-129

كل ديات القتلى بين الطرفين، إلى درجة أن خاطر الحارث بابنه في سبيل الصلح، بعد أن قتل أحد الذبيانيين عبسياً، في لحظة كانت مفاوضات الصلح موشكة على الوصول إلى نتيجة إيجابية؛ فتقدم بابنه للعبسيين وبمائة من الأبل، يختاروا أي الأمرين شاؤوا. فعاد العبسيون إلى العقل، وأخذوا الدية، وأرجعوا الولد إلى أبيه، ووقع الصلح آخر الأمر، ودفع هرم والحارث كل ديات القتلى من الطرفين من أموالهما الخاصة[1].

ثانياً.3/ج**: مناسبة القصيدة:

يبدأ زهير قصيدته كما يبدأ الشعراء، إذ يقف على الأطلال يندب ويبكي ويتذكر: يتذكر المرأة التي كانت زوجته وطلقها فبانت، ويقف على أطلال كانت بها، متسائلاً بلوعة: أمن منازل الحبيبة أم أوفى بقايا لا تجيب؟. وهل بلغ بآثارها أن لم تعد ناطقة، وقد كانت تضج بالحياة؟. فاللوعة هنا ظاهرة في هذا التساؤل التعجبي. ثم ينتقل في البيت التالي مشبهاً آثار هذه الدار البائدة ببقايا وشم قديم في معصم اليد:

1. أَمن أُمِّ أَوْفى دِمنةٌ لم تَكَلّمِ بِحوْمَانةِ الدُّرَّاجِ فَالمُتَثَلّمِ[2]
2. ديارٌ لَها بِالرَّقْمَتَينِ كَأَنَّهَا مَراجيعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعصمِ[3]

---

[1]- انظر: شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص307

[2]- الدمنة: الآثار. وحومانة الدراج والمتلثم أسماء أمكنة.

[3]- الرقمتان: أسماء أمكنة. مراجع وشم: أي الوشم المتكرر. ونواشر معصم: العروق التي في المعصم.

فهو يقف بالمكان الخالي من الأحبة، فلا يكاد يعرفه، إلا بعد جهد جهيد. ولا جرم، فهو يقف على المكان بعد أكثر من عشرين سنة خلت من فراغه من أهله. ولكنه لا يملك نفسه بعد إذ عرفه، إلا أن يخاطبه مسلماً، بشوق من لم ينس الذكريات:

3. وَقَفْتُ بِهَا من بعدِ عشرِين حِجَّةً فَلأْياً عَرَفتُ الدَّارَ بعد تَوَهُّمِ[1]
4. فَلما عرفتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا أَلاَ أَنْعِمْ صباحاً أَيها الرَّبْعُ وَاسْلَمِ

ولا ينسى الشاعر الجاهلي أن يخاطب خليله المتوهم . وتفترض به سَنَن الشعر أن يكون قد استوقفه . فيسأله أن يصعد التل القريب، من فوق عين الماء الذي تحته، ليرى إن كان يبصر ظعائن الأحبة الراحلات:

5. تَبَصَّرْ خَلِيلي هل ترى مِن ظَعَائنٍ تَحَمَّلن بالعلياءِ من فوْقِ جُرثُمِ[2]

ثم ينتقل من بعدُ إلى غرضه من القصيدة، ممهداً لذلك بالقسم ببيت الله الحرام:

6. فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الذي طافَ حَوْلَهُ رجالٌ بَنوهُ من قُريشٍ وَجُرْهُمِ

إذ يحلف يميناً أن ممدوحيه هما أفضل الناس طراً، وفي كل الأحوال، لأنهما أدركا عبسا وذبيان، وقد قررتا أن تتعطرا بعطر الشؤم . عطر منشم . الذي لا يرجع إلى الحياة من تعطر به:

---

[1]- لأياً: أي ببطء شديد.

[2]- جرثم: اسم عين ماء.

7. يَمِيناً لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُمَا على كل حَالٍ مِنْ سَحِيْلٍ وَمُبْرَمِ[1]
8. تَدَارَكتمَا عَبْساً وَذُبْيَانَ بَعْدَما تَفانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُم عِطْرَ مَنْشَمِ[2]

فيقول: لقد أصبح بيتاكما . بفعلكما هذا، يا هرم بن سنان ويا حارث بن عوف . من أعلى بيوتات معد بن عدنان. والحق أن من يفعل فعلكما، فيقتني كنوز المجد، يعظمه الناس، ويعرفوا له قدره:

9. عَظِيمَيْنِ فِي عُلْيَا مَعَدٍّ هُدِيْتُمَا ومن يَسْتَبِحْ كَنزاً من المَجدِ يَعْظُمِ

فالجراح إنما تندمل بكثرة البذل، فيبذل الكرماء مئات الإبل، من أموالهم، في سبيل السلام والمصالحة، رغم أنهم لا جريمة لهم، ولم يريقوا في الحرب دماً قليلاً أو كثيراً. وهكذا فعل السيدان هرم بن سنان والحارث بن عوف:

10. تُعَفّى الكلوم بالمئين فأصبحتْ يُنَجّمها من ليس فيها بمجرمِ[3]
11. يُنجّمها قومٌ لقومٍ غرامةً ولم يُهَرِيْقوا بينهم ملء مِحجَمِ

ثم يطلب من سامعه أن يذكّر المتقاتلين السابقين، بأنهم قد أقسموا الأيمان ألا يحنثوا، وألا يعودوا إلى الحرب، وأن يصلحوا نواياهم، فلا يكتموا العود إلى القتال، لأن الله يعلم السر وأخفى، ويجازي على الخيانة، إما انتقاماً سريعاً في الدنيا، وإما حساباً عسيراً في الآخرة. وما ذاك إلا لأن كل ما يُفعل مكتوب في كتاب مدخر:

---

[1]- السحيل: الخيط الواحد. والمبرم: هو الخيوط المتجمعة المفتولة.

[2]- منشم: عطارة في الجاهلية، تعطر بعطرها قوم، فلم يرجع منهم أحد. فتشاءمت به العرب.

[3]- ينجمها: أي يتعهد بدفعها على أجل.

12. أَلاَ أَبْلِغِ الأَحْلاَفَ عَنِّى رِسالةً وَذُبْيَانَ هَلْ أَقْسَمْتُمو كُلَّ مُقْسَمِ
13. فَلاَ تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ
14. يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كتابٍ فَيُدَّخَرْ لِيَوْمِ الحسَابِ أَو يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

ثم يقبح الحرب للمتحاربين، ويذكرهم بنارها، التي ما إن تُضرم حتى تشتعل لأقل الأسباب، مؤكداً لهم أنهم لم يعودوا في حاجة إلى تذكيرهم بقبحها، فهم الذين علموها وجربوها وعرفوا كم هو قبيح شرها. فالحديث عن الحرب، لمن سبق لهم أن ذاقوا نارها، ليس مجرد حديث عن غيب غير معلوم، بل عن واقع مجرب ومشهود:

15. وما الحربُ إلاَّ ما عَلمتمْ وَذُقْتُمو وما هو عنها بالحديث المُرَجَّم[1]
16. مَتَى تَبْعَثُوهَا تَبْعثُوهَا ذَمِيْمَةً وَتَضْرَ إِذَا ضَرَّيْتُمُوها فَتَضْرَمِ

ثم يواصل تقبيح الحرب، التي عليهم أن يتجنبوها، بتصويرها بصورة الطاحون الذي يطحن كل ما يلقى فيه، أو الناقة التي تلقح كل عام، وتفطم سريعاً، تمهيداً لإنتاج توائم من الشؤم المضاعف، تماماً كما تلد امرأة مشؤومةٌ غلمانَ شؤمٍ على أقوامهم، كشؤم أحمر ثمود، الذي عقر الناقة وجاء لقومه بالعذاب:

17. فَتعرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا وَتَلْقَحْ كِشَافاً ثُمَّ تنتجْ فَتُتْئِمِ[2]
18. فتنتجْ لكم غِلمانَ أَشْأَمَ كلهمْ كأَحمرِ عادٍ ثم تُرضِعْ فَتَفْطِمِ[3]

---

[1]- الحديث المرجم: الحديث الكاذب. ويقال له رجم بالغيب.

[2]- كشافاً: أي كل عام. وتتئم: أي تنجب توائم.

[3]- أشأم: مصدر. فهو الشؤم بعينه. وأحمر عاد: المقصود به أحمر ثمود. وكان يقال لثمود عاداً الآخرة. ويقال لقوم عاد عاداً الأولى، كما في قوله تعالى: ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾ النجم/50

ثم يسخر من نتاجات الحرب، إذ يصورها غلالاً وافرة، كغلال العراق، وأي غلال شؤم هذه!. إنها غلال الدم، لا غلال الطعام والمال:

19. فَتُغْلِلْ لكم ما لا تُغِلُّ لأَهلها قرىً بِالعراقِ مِن قَفِيْزٍ وَدِرْهَمِ[1]

ثم يعلن زهير، بعد كل هذا الحديث عن الحرب، أن ثمانين عاماً عاشها كفيلة بجعله يسأم تكاليف الحياة:

20. سَئِمْتُ تَكَالِيْف الحياةِ ومن يَعِشْ ثَمَانِين حولاً لا أَبا لك يَسْأَمِ

وبعد كل هذا، نرى زهيراً يختتم قصيدته بحكم، تقول إن من يبذل المعروف يتقي الشتم:

21. ومن يجعل المعروفَ من دون عِرضهِ يَفِرْهُ ومن لا يتقِ الشتم يُشْتَمِ[2]

وإن من خاف الموت أدركه ولو صعد إلى السماء هرباً:

22. وَمَنْ هابَ أَسبابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ وإِنْ يَرْقَ أَسبابَ السماءِ بِسُلَّمِ

وإن عاقبة عمل المعروف مع السفهاء ندم وذم:

23. ومن يجعلِ المعروفَ في غير أَهْله يَكُنْ حَمدُهُ ذَماً عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ

---

[1]- القفيز: مكيال تكال به الغلال. أما الدراهم فأموال نقدية.

[2]- يفره: وفرت الشيء أفره وفراً: أكثرته. وفرته فوفر وفوراً.

وإن من يرفض السلام، سوف تفرض الحرب عليه قرارها القوي، فيستسلم راغماً. هذا وقد كان العرب إذا ما التقوا في طريق، أشار بعضهم إلى بعض بأزجّة الرماح، إشارة إلى الرغبة في السلام. فأما إذا رغب طرف عن السلام، ولم يقلب رمحه، فهو يسعى إلى الحرب بغياً. ومن يفعل هذا الفعل، لا بد من أن تكويه الحرب بنارها، فيضطر إلى الاستسلام لحكم العوالي: أي يقبل بشروط الاستسلام بعد الهزيمة:

24. ومن يَعصِ أَطرافَ الزِجاجِ فإنَّهُ يُطِيعُ العَوَالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ[1]

ورغم كل هذا الحب للسلام، فلا شك أن على المرء أن يدافع عن شرفه، إذا ما تعرض للعدوان، فيجازي الظالم بظلمه:

25. ومن لم يذُدْ عَن حوضهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظلِمِ الناسَ يُظلَمِ[2]

وزهير هنا لا يدعو إلى ظلم الناس، كما ظن الكثيرون، بل هذا من باب المشاكلة: أي الإتيان بلفظ ليشاكل لفظاً، وقع في صحبته، ولا يقصد معناه[3]؛ نظير قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[4] فنحن نعلم أن الله لا يجازي السيئات.

---

[1]- الزِجاج: من الزج وهو مؤخر الرمح. والعوالي: من العالية وهي مقدم الرمح، وفيه اللهذم وهو السنان الطويل.

[2]- الحوض: هو ما يملأه المرء من الماء لأهله. ويمثل به هنا لشرفه.

[3]- انظر: الطيبي. البيان في التبيان. ص199

[4]- الشورى. الآية: 40

الفصل الخامس

مختارات من الروائع

أولاً: الغزل ووصف النساء:

إذا كان الشعر للغناء . كما قلنا في صفحات سابقة . فأي شيء أكثر إثارة للغناء من المرأة؟. أي شيء من الممكن له أن يثير مشاعر الرجل وأحاسيسه أكثر من المرأة؟. من هنا فلا يمكن للعربي أن يقول شعراً، لأي سبب من الأسباب، دون أن تتخلله المرأة، بل أن يبتدئ بذكرها منذ كل بداية، فيقف يبكي أطلالها، ويصور جسدها وأحاسيسها، ويبكي على فراقها ويستبكي الآخرين، ويعاتبها على رحيلها، ووعودها، وصدها، ويذكر دلالها ورقتها، ومغامراته معها... إلخ.

ولئن جرت عادة الشاعر الجاهلي ألا يفرد قصيدته لموضوع واحد، بل يجعل لها هيكلاً خاصاً، يتسلسل به من موضوع إلى آخر؛ فلقد وجدنا المرأة في بداية كل قصيدة جاهلية، يطول ذكرها لدى واحد حتى تشبه أن تكون موضوعه الأهم، ويقصر عند آخر حتى نظن أنه إنما ذكرها اتباعاً لعمود الشعر الموروث.

وإذا كنا سنختار من القصائد المشهورة، عدداً من المقطوعات الغزلية، فنعرض فيه نماذج من كيفية تعامل مشاعر الشاعر الجاهلي مع المحبوبة؛ فما ذاك إلا لأن الغزل ووصف المرأة هو الموضوع الأثير لدى الشعراء: كان كذلك في الماضي، وكان ذلك في الحاضر، وسيكون كذلك في المستقبل، لا يكاد يشذ أحد عن هذه القاعدة، التي تشبه أن تكون عامة، لا في الجاهلية فحسب، بل في الإسلام كذلك. ولقد شهدنا كعب بن زهير يتغزل بسعاد في حضرة الرسولﷺ فلا ينهره، بل يؤمّنه ويستمع إليه، ثم يلقي عليه بردته استحساناً.

وسنعرض في السطور القادمة، إن شاء الله، لبعض من الأشعار التي قالوها في النساء.

أولاً.1: المنخّل اليشكري:

أولاً.1/أ: الشاعر:

هو المنخّل بن عمرو، من قبيلة يشكر، إحدى بطون بكر بن وائل الممتدة. ويعتبر القدماء المنخل واحداً من الشعراء المقلين، ويذكرون قصة له مع المتجردة . زوجة النعمان بن المنذر . تسببت في غيابه مقتله، هذا مختصرها.

كانت المتجردة من أجمل نساء العرب. وكانت قبل النعمان من أبيه المنذر بن المنذر، فخادع عنها المنذر زوجها وابن عمها الأسود بن المنذر الكلبي، حتى طلقها، فتزوجها وحجبها. فلما مات المنذر، تزوجها ابنه النعمان ـ وكان قصيرا دميما أبرش ـ فأحبت المنخل، وأقامت معه علاقة. وكان النابغة الذبياني نديماً

للنعمان كالمنخل تماماً، فرأى المتجردة يوماً، ووقع في حبها، حتى وصفها في شعره وصفها وصفاً فاحشاً، فغار المنخل من ذلك، ووشى به إلى النعمان، وقال: هذه صفة معاين. فهمّ النعمان بقتل النابغة، لولا أن هرب منه.

وخلا المنخل بالمتجردة وخلت به، حتى قيل إنها ولدت على فراش النعمان بولدين يشبهانه. وتسامعت بذلك العرب، حتى قالت إنهما من صلب المنخل. وبلغ ذلك النعمانَ فمكر مكراً، وأوهم المتجردة أنه خارج إلى الصيد. فبعثت المتجردة إلى المنخل فأدخلته قبتها، وقيدت خلخاله إلى خلخالها، ثم أسدلت عليه شعرها، وقد أوصت خادمتها بأن تنذرها بقدوم الملك، إذا ما عاد من رحلته. لكن الخادمة نامت، حتى دخل النعمان فجأة، فرآهما على هذه الحال، فعذبه حتى الموت[1].

أولاً.1/ب: القصيدة:

سنورد هذه القصيدة دون شرح، مغتنين بعذوبة لغتها وليونة أسلوبها وما قدمناه من علاقتها بالحدث الذي ذكرناه. قال المنخل:

1. ولقد دخلتُ على الفتاةِ الخِدرَ في اليومِ المَطيرِ
2. الكاعبِ الحسناءِ تر فُلُ في الدِمقْس وفي الحريرِ
3. فدفعتُها فتدافعتْ مشيَ القَطاةِ إلى الغَدِيرِ[2]

---

[1]- انظر: الأصفهاني. الأغاني. الجزء21. ص105.

[2]- القطاة: جمعها قطا. وهي طائر ثقيل المشي في حجم الحمام. المنجد.

4. ولثمتُها فتنفَّستْ كتنفّسِ الظبْي البَهِيرِ[1]
5. فدنتْ وقالتْ: يا منخِّلُ ما بجسمك من حَرُوْرِ
6. ما شفَّ جسمي غيرُ حبِّكِ فاهدئي عني وسيري
7. وأحبها وتحبني ويحب ناقَتَها بعيري
8. يا رُبَّ يومٍ للمنخِّلِ قدْ لَها فيهِ قصيرِ
9. فإذا انتشيتُ فإنّني ربُّ الخَوَرْنَقِ والسَّدِيْرِ[2]
10. وإذا صحوتُ فإنّني ربُّ الشُّوَيْهَةِ والبعيرِ
11. ولقد شربتُ من المُدامةِ بالقليلِ وبالكثيرِ
12. يا هندُ من لمُتَيَّمٍ يا هندُ للعاني الأسيرِ؟[3]

أولا.2: المُثَقِّب العبدي:

أولاً.2/أ: الشاعر:

المُثَقِّب العبدي . بكسر القاف . شاعر فحل قديم اسمه "عائذ بن محصن، من بني نُكرة، وهم من عبد القيس بالبحرين. وكان . فيما يقول ابن قتيبة . معاصراً للملك عمرو بن هند (554-570م)... ولكن الأصمعي يعارض ذلك؛ فقد مدح

---

[1]- البهير: اسم مفعول من البهر وهو تتابع النفس. فالظبي البهير هو الغزال الذي يلهث من شدة الجري. مختار

[2]- الخورنق والسدير: قصران للنعمان.

[3]- الأصمعيات. ص59-60. والقصيدة أطول من هذا، ولكننا اجتزأنا هذا النص منها.

المثقب أبا قابوس النعمان بن المنذر الملك (580-607م) وليّ حظوة النعمان"[1]. وسمي المثقب بهذا الاسم بسبب البيت العاشر من القصيدة:

أولاً-2/ب: القصيدة:

يبدأ المُثَقِّب العبدي قصيدته بمطلع غزلي، يوشك أن يستوعب نصف عدد أبيات القصيدة، إذ يستهل القصيدة بمناداة المحبوبه، بأسلوب شديد الحميمية، فهو لا يناديها أي نداء، ولا يسميها بأية طريقة، بل يجمع بين تدليلين: حرف الهمزة بدلاً من (يا)، و(فاطم) بدلاً من فاطمة. فالنداء للقريب، والتسمية بالترخيم:

1. أفاطمُ قبلَ بَيْنِكِ مَتِّعيني ومنْعُكِ ما سألتُ كأنْ تَبيني[2]

ونحن إذ نتأمل هذا الاستهلال بهذه الصورة، نشعر كم هو متوسل مستضعف متذلل، هذا الشاعر في هذا الموقف، على طريقة الفرسان النبلاء، حين يجمعون بين تناقضين، لا أحلى ولا أرق: القوة الباسلة في مواجهة الأعداء، والضعف المستكين بين يدي المحبوبة.

لكن مناداة المحبوبة بـ(أفاطم) ليس مجرد ترخيم تدليلي فحسب، بل كثافة وموسيقى كذلك. وبذا تتبدى لنا في هذا النداء أربع علاقات مجتمعة هي: المناجاة، والترخيم، والكثافة، والموسيقي:

---

[1]- كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. قسم1. ص173-174

[2]- تبيني: تفارقي. وسألت: طلبت.

- فلأنها في قلبه، فهو لا يحتاج إلى ندائها، إذ تكفيه المناجاة (حرف الهمزة).
- ولأنها رقيقة كالفراشة، تستحق أن يرق اسمها فيشف، حتى يكاد يطير (فاطم).
- ولأن قلبه مزدحم بمشاعر لا يقوم بها الكلام، فقد ناسب أن يتكثف اسمها، فيحمل دلالات تفوق عدد حروفه من (فاطمة) إلى (فاطم).
- ولأنه يراها موشكة على الرحيل، قبل أن تمنحه وصالها المرجو، فهو فاقد حزين يتغنى باسمها ويموسقه. وأي شيء ألصق بالحزن من الغناء!.

وبعد هذا التدليل وهذه المناجاة الغنائية المكثفة، يؤكد الشاعر لمحبوبته أن إخلاف موعدها، في الوصال، يشبه الفراق تماماً، إذا لم يكن هو الفراق تماماً، ففي البيت روايتان:

1. واحدة تقول: (ومنعك ما سألتُ كأن تبيني).
2. وأخرى تقول: (ومنعك ما سألتك أن تبيني).

والفرق واضح بين المعنيين.

بعد ذلك نراه يرجوها أن تكف عن بذل وعود تشبه في كذبها كذب رياح الصيف إذ تعد بالمطر:

2. فَلا تَعِدي مَواعِدَ كاذِباتٍ تمرُّ بها رياحُ الصيفِ دوني

لكن كل هذا التوسل والتحنن سوف يحمل من بعدُ، في طياته، تهديداً مضمراً بالمعاملة بالمثل:

3. فإنِّى لو تخالفني شِمالي خِلافَكِ، ما وصلتُ بها يميني
4. إذاً لَقَطَعتُها، ولقُلتُ: بِيني كذلكَ أجتوي من يجتويني[1]

لكن توتره لا يدعه يتوقف عند حال واحدة: فإذا كنا قد رأيناه من قبلُ يهدد، فها نحن الآن نراه لا يستطيع تنفيذ تهديده، بل يتابع رحلة المحبوبة مع صواحبها، مستسلماً لحبه آخر الأمر.

ونحن نعرف أن المثقب قد استسلم بعد كل ذلك التهديد، لأننا رأيناه يواصل الحديث عن لوعته من الحب . واللوعة قرين الاستسلام . ملتفتاً بخطابه إلى عرض مشهد بصري للمحبوبة ورفيقاتها؛ فيصورهن كما يشتهي الجاهلي القديم: شابات، منعمات، طويلات الأعناق مثل إبل بختيّة، سمينات كالسفن:

5. لِمَن ظُعُنٌ تُطالعُ مِن ضُبَيْبٍ فما خَرَجَت مِنَ الوادي لِحينِ[2]
6. مررن على شَرَافَ فذاتِ رَجْلٍ ونَكَّبن الذرائحَ باليمينِ[3]
7. يُشَبَّهنَ السَّفينَ وهنَّ بُختُ عُراضاتُ الأباهِرِ والشُّؤونِ[4]

ولكي لا يتبقى في صدورنا أثارة من شك في أن تهديداته السابقة، مثل وعود محبوبته، قد ذهبت أدراج الرياح، دعونا نتأمل قوله من بعدُ:

---

[1]- أجتوي: أكره.

[2]- ظعن: جمع ظعينة: في الأصل هي المرأة في الهودج راحلة، ثم أطلقت على المرأة عموماً.

[3]- ضبيب وشراف وذات رجل والذرائح: أسماء أماكن.

[4]- بخت: جمع بختية، وهي أجود أنواع الإبل. والأباهر: الظهور. والشؤون: جوانب الجسم، وكان امتلاء جسد المرأة أحد أهم علامات الجمال.

8. وهُنَّ على الرَّجائزِ واكِناتٌ قَواتِلُ كُلِّ أَشجَعَ مُسْتكينِ[1]

ولا غرابة أن يتراجع الفارس العاشق عن تهديداته؛ فالجميلات يستطعن أن يقتلن كل قوي شجاع، بدلالهن وخفتهن ورشاقتهن، التي تشبه رشاقة غزلان شردت عن القطيع متراقصة، تتناول كل دانٍ من الغصون:

9. كغزلانٍ خذلنَ بذاتِ ضالٍ تنوشُ الدَّانياتِ منَ الغصونِ[2]

ولعلنا لا نبعد إذا ما قلنا بأن الصورة، في هذا البيت، قرينة فعل المحبوبة بالشاعر، إذ تتدلل وتهرب وتفارق، كما تفعل الغزلان، ممارسة بذلك لعبة إغواء متقنة معروفة منذ حواء، هي تقنية الخفاء والتجلي: فهي كصواحبها اللاتي يكشفن عن وجوههن تارة، ثم يغطينها تارة أخرى، ثم يبصبصن من تحت البراقع، بعيون تعد بما وراءها من جمال، مختفٍ وراء الستر، يذهب بخيال العاشق إلى عوالم مشتهاة شتى:

10. ظهرنَ بكَلّةٍ، وسَدلْنَ أخرى وثَقَّبنَ الوصاوِصَ للعيونِ[3]

فأي دلال هذا الذي يجعل المظلوم يطلب المزيد، إلا أن يكون سببه هذا الشعر الطويل!:

---

[1]- الرجائز: الهوادج. واكنات: مطمئنات لاهيات. وأشجع مستكين: الشجاع حين يستكين للمرأة.

[2]- خذلن: تخلفن عن صواحبهن. والضال: هو شجر السدر البري.

[3]- الكلة: الستر الرقيق. وسدلن: أنزلن الستر. والوصاوص: البراقع. وبهذا لقب الشاعر بالمثقِّب.

11. وهنّ على الظِلامِ مُطَلَّباتٌ طويلاتُ الذوائبِ والقرونِ[1]

فإذا ما شعرن بأن بصبصة العيون من فتحات البراقع غير كافية، كشفن عن أجزاء من صدورهن ورقابهن، زيادة في إشعال النار!. ألم نقل إنها لعبة حواء التاريخية؟. فهن يعلمن أن في كشف بعض الجمال، ما يغوي بالجري وراء البعض الآخر المختفي:

12. أَرَينَ مَحاسِناً وكنَنَّ أُخرى من الأجيادِ والبَشَرِ المَصونِ[2]

لا غرابة إذن أن يتراجع العاشق عن تهديده، تحت وطأة هذه الصدور، التي تلوح من تحت عقود الذهب. وها هنا كذلك لعبة خفاء وتجلٍ أخرى: فالذهب يغطي الصدور، فلا يظهر منها إلا ما يلوح للبصر من تحته، أبيض ناعماً عاجياً لا غضون فيه:

13. ومن ذَهَبٍ يَلوحُ على تَرِيْبٍ كلونِ العاجِ ليسَ بذي غُضونِ[3]

وهكذا يبرر الشاعر، لنفسه ولنا، لم فشل في التعامل مع صدود المعشوقة بالمثل. لقد غدا الفارس المغوار أسيراً مرتهناً، يعز عليه أن يفك قيده ويحقق حريته، مفضلاً على ذلك عبودية حتى الموت:

---

[1]- على الظِلامِ: رغم الظلم. ومُطلَّبات: مطلوبات. الذوائب والقرون: خصل الشعر وجدائله.

[2]- كنَنَّ: أخفين. والأجياد: جمع جيد، وهي الرقاب. والبَشَرِ: البشرة.

[3]- التريب: عظام الصدر، والمقصود هنا الصدر كله. والغضون: التجاعيد في الجلد.

14. إذا ما فُتْنَهُ يوماً برهنٍ يعزُّ عليهِ لم يرجعْ بحينِ[1]

ورغم ما وصفه الشاعر من امتلاء أجسادهن . تلبية لمتطلبات الجمال القديم . إلا أنه يعود ليؤكد أن هذا الامتلاء لا يمنع الخفة والرشاقة؛ فرشاقة المحبوبة تتفوق على كل رشاقة، ولو كانت رشاقة الخادمة. وإذا كان صحيحاً أنها ممتلئة منعمة مدللة مخدومة؛ فإن الأصح من ذلك أنها رشيقة سريعة مطيعة، إذا ما أرادت (تبذُّ المرشقاتِ منَ القطينِ).

هكذا هو حالي وحالها: هي تتلهى بي بوعودها الكاذبة، وأنا أتلهى عن حرماني منها بتذكرها، كفارسٍ يتلهى برياشة سهامه عن غزو مستحيل:

15. بتَلهِيَةٍ أَريشُ بها سِهامي تبذُّ المُرْشِقاتِ منَ القَطِيْنِ[2]

وهؤلاء الجميلات المدللات، يمعنّ الآن في البعد . وأسفاه . مسرعات متنقلات في الأرض، من مرتفع إلى منخفض، لا يكدن ينزلن لقيلولة تؤخر رحيلهن والفراق، ولو إلى حين:

16. علونَ رَباوةً وهبطنَ غَيباً فلَمْ يَرجِعْنَ قائلةً لحِينِ[3]

---

[1]- فُتنهُ برهنٍ (الضمير يعود على الجميلات): أي غلبنه فأصبح رهينهن. بحين: إلى الأبد.

[2]- أريش: أثبت الريش بنهاية السهم. تبذ: تتفوق على. المرشقات: الرشيقات. القطين: الخدم. فرغم ما عُرف من خفة حركة الخادمات وسرعتهن في تلبية الأوامر، إلا أن رشاقة المحبوبة تتفوق عليهن.

[3]- الرباوة: المرتفع من الأرض. والغيب: ما انخفض منها. والقائلة: القيلولة. والحين: الأبد.

لكنه حين يتأكد أن رحيل المحبوبة واقع لا محالة، ومن ثم فإن عليه أن ييأس من وصالها، يفعل فعل الثعلب الذي اعتبر العنب حصرما لمجرد أنه لم يستطع الوصول إلى قطوفه. فإذا كانت المحبوبة راحلة، ولا يجدي معها كل هذا الرجاء، فلم لا يعود المثقب إلى وسيلته القديمة في التهديد؟:

17. فقلتُ لبعضهنَّ، وشُدَّ رحلي لهاجرةٍ عصبتُ لها جبينى
18. لعلّكِ إنْ صَرَمتِ الحَبلَ منِّي أكونُ كذاكِ مُصحَبتي قَروني[1]

أي: قلت لها وقد شددت رحل ناقتي، وعصبت جبيني، استعداداً للسفر في عز الظهيرة: ها أنا أقطع وصلك كما قطعت وصلي، وأقرن نفسي بناقتي، تحملني في رحيل مقابل لا لقاء بعده[2].

ثانياً: شعر الصعاليك:

ثانياً.1: تمهيد:

الصعاليك في أصل اللغة هم الفقراء. لكن الشعراء الصعاليك، في التاريخ الأدبي، ليسوا مجرد شعراء فقراء، بل مجموعة انفردت عن المجتمع الجاهلي بمفاهيم خاصة بها، فأدى ذلك إلى أن ينفردوا بأجسامهم، بعد أن كانوا مجرد منفردين بمفاهيمهم: فبعضهم طردته القبيلة، بسبب جناياته؛ وبعضهم رفضت

---

[1]- صرمتِ الحبل: قطعتِ الوصل. مُصحَبتي قَروني: تصاحبني نفسي. وأعتقد أن الحديث يدور عن الناقة، لأنها هي قرينة الأعرابي في السفر.

[2]- انظر: المفضليات. ص288-290

القبيلة الاعتراف بنسبته إليها، منذ البداية، لأن أمه سوداء حبشية؛ وبعض ثالث آثر هو أن يعتزل القبيلة.

"وتتردد في أشعارهم جميعاً صيحات الفقر والجوع، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس، وشدة المراس والمضاء، وسرعة العدو... وتُروى عنهم أقاصيص كثيرة في هذا الجانب... وهم في أشعارهم يتغنون بمغامراتهم، ونراهم في ذلك يتمدحون بالكرم، كما نرى فيهم كثيراً من البر بالأقارب والأهل، وأيضاً فإننا نحس عندهم غير قليل من الترفّع والشعور بالكرامة... وكأنما تحولت الصعلكة . في أواخر العصر الجاهلي . إلى نظام يشبه نظام الفروسية: وهي حقاً تقوم على السلب والنهب، ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون سيداً كريماً"[1].

والحقيقة أن شعر الصعاليك هو صورة عن أنفسهم الداخلية، وثورتهم الاجتماعية.

ونحن إذ نقول هذا لا نلاحظ كلامهم فحسب، بل نلاحظ مع ذلك بنية قصيدتهم، التي نرى أنها تمردت ـ مبكراً . على عمود الشعر العربي، من الوقوف على الأطلال، ومدح السادة والملوك رغبة بما في أيديهم؛ بل إنها تميزت . كأصحابها . بنزعة إنسانية تتعطف على الفقير والمسكين، وتدعو إلى العدالة في توزيع الثروة، بل تتآخى أحياناً مع الحيوانات، فلا تكتفي بتصوير حوارها مع

[1]ـ شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص375ـ376

بعضها البعض، وجوعها الذي يدفعها إلى الافتراس؛ ثم تفضل العيش معها، باعتبارها أكرم من الإنسان، البخيل الشحيح الجبان الطامع.

وقد اشتهرت أسماء شعراء صعاليك عديدين ذكرت منهم كتب الأدب: تأبط شراً، والشنفرى، والسليك بن السلكة، وآخرين. إلا أن أشهرهم على الإطلاق اثنان: الشنفرى وعروة بن الورد؛ الأول لفتكة ولاميته، والثاني لسيادته ومروءته وتعففه، حتى قيل عنه (عروة الصعاليك). وقد قال عنه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان: "ما يسرني أن أحداً من العرب ولدني، إلا عروة بن الورد، لقوله:

إني امرؤ عافي إنائي شِركةٌ وأنت امرؤٌ عافي إنائك واحد[1]
أُقَسّمُ جسمي في جسومٍ كثيرةٍ وأحسو قُراح الماءِ، والماءُ باردُ"[2]

وتروي كتب الأدب عن عروة بن الورد هذا القصة التالية:

"وكان قد أصاب في بعض غاراته امرأة من كنانة، فاتخذها لنفسه، فأولدها، وحج بها، ولقيه قومها وقالوا: فادنا بصاحبتنا [أي دعنا ندفع لك فدية فيها] فإنا نكره أن تكون سبيّة عندك. قال: على شريطة. قالوا: وما هي؟ قال: على أن نخيّرها بعد الفداء، فإن اختارت أهلها أقامت فيهم، وإن اختارتني خرجتُ بها . وكان يرى أنها لا تختار عليه . فأجابوه إلى ذلك، وفادوا بها. فلما خيّروها اختارت قومها، ثم قالت: أما إنّي لا أعلم امرأة ألقت ستراً على خير منك: أغفلُ عيناً وأقلُّ فحشاً وأحمى لحقيقة. ولقد أقمت معك وما يوم

---

[1]- عافي: أي باقي. وعافي إنائي: أي الموجود فيه.

[2]- ابن قتيبة. الشعر والشعراء. الجزء2. ص144

يمضي إلا والموت أحبُّ إليّ من الحياة فيه، وذلك أني كنت أسمع المرأة من قومك تقول: قالت أمةُ عروة كذا، وقالت أمة عروة كذا. والله لا نظرتُ في وجه غطفانيّة. فارجع راشداً، وأحسن إلى ولدك[1].

أما الشنفرى فسنختار أن نعرض له في هذه الصفحات، بصورة تفصيلية أكثر، بسبب من تميزه من بين الصعاليك بشهرة قصيدته، وذيوعها على ألسنة الرواة، حتى قيل إنها (لامية العرب).

ثانياً.2: الشنفرى الأزدي:

ثانياً. 2/أ: الشاعر:

الشنفرى "من عشيرة الإواس بن الحجر الأزدية اليمنية، فهو قحطاني النسب، ويدل اسمه . ومعناه: الغليظ الشفاه . أن دماءً حبشية كانت تجري فيه من قبل أمه، فهي أمةٌ حبشيةٌ، وقد ورث عنها سوادها، ولذلك عُدّ في أغربة العرب. ولا نراه ينشأ في قبيلة (الأَزْد)، إنما ينشأ في قبيلة (فَهْم). ويضطرب الرواة في سبب نزوله مع أمه وأخٍ له بها؛ وربما كان أقرب ما يروونه من ذلك: أن قبيلته قتلت أباه، فتحولت أمه عنهم إلى بني فهم. ومما يرجح ذلك أننا نجده يخص بغزواته بني سلامان الأزديين، معلناً في أشعاره أنه يقتصّ لنفسه منهم. ويقال إن الذي روّضه على الصعلكة وقطع الطرق (تأبط شراً)، فكان يغير معه، حتى صار لا يُقام لسبيله. وما زال يغير على

[1]- ابن قتيبة. الشعر والشعراء. الجزء2. ص676

الأزد وينكل بها، حتى قتل . فيما يقص الرواة . تسعة وتسعين، انتقاماً لأبيه. وأخيراً، يرصدون له كميناً، فيقع فيه، ويمثّلون به تمثيلاً فظيعاً، يقطعون فيه جسده تقطيعاً، ويرمون به للسباع. ويقال إن رجلاً عثر بجمجمته فعقرته، فمات. وبذلك يبلغ قتلاه من الأزد مائة. وخيوط الأسطورة واضحة في مقتل الرجل المكمل للمائة"[1].

ثانياً. 2/ب: القصيدة:

اعتبرت هذه القصيدة من روائع ما قالته العرب، حتى إنها وقفت في موازاة المعلقات، إلى درجة أن أطلقوا عليها اسم (لامية العرب).

قارب عدد أبيات لامية العرب السبعين بيتاً، نورد منها مقطوعات متفرقة، نحرص على ألا تخل بالمعنى العام للقصيدة، فنمثل ببعضها على بعض.

يستهل الشنفرى قصيدته بتوجيه الخطاب إلى قبيلة . والعرب تقول للأهل (بنو الأم) . فيصورها كقافلة تعرض عليه خيراتها، فيقول لها: ارحلوا عني، فلست ابنكم، وأرغب عنكم إلى قوم آخرين:

1. أقيموا بني أمي صدورَ مَطِيكم فإني إلى قومٍ سِواكم لأميلُ[2]

---

[1]- شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص379-380.

[2]- لأميل: لأشد ميلاً.

وقد قررت قراري هذا بعد أن فكرت فيه، طوال الليل، فقدرت ودبرت وتمهلت، ثم اتخذت القرار النهائي، كمسافر شد رحل ناقته للرحيل:

2. فقد حمت الحاجاتُ والليلُ مقمرٌ وشُدت لِطياتٍ مطايا وأرحُلُ[1]

ففي الأرض متسع الكريم إذ يخشى أن يهجره قومه فيهجرهم:

3. وفي الأرض مَنْأىً للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القِلى مُتعزَّلُ[2]

ولكن الشنفرى لا يختار قوماً من البشر على قومه، بل يفضل الحيوانات، فيتخذهن قومه بدلاً منهم: الذئب والنمر والضبع:

4. ولي دونكم أهلونَ: سِيْدٌ عَمَلَّسٌ وأرقطُ زُهلول وَعَرفاءُ جيألُ[3]

فهم أهلي وكاتمو سري وحلفائي، حيث لا يذيع بينهم سر، ولا يُخذل فيهم حليف، لمجرد أنه جنى جناية ما، هنا أو هناك:

5. هم الأهلُ، لا مستودعُ السرِّ ذائعٌ لديهم، ولا الجاني بما جَرَّ يُخْذَلُ

---

[1]ـ حُمت الحاجات: تم اتخاذ القرار. الطيات: الأهداف. المطايا: الإبل. والأرحل: ما يوضع عليها مما يكون تحت الراكب.

[2]ـ القِلى: الهجر. متعزل: معتزل. أي من خاف أن يعتزله قومه، ففي الأرض متسع له.

[3]ـ سَيد عملّس: الذئب القوي السريع. أرقط زهلول: النمر المرقط الأملس. عرفاء جيْأل: الضبع الطويلة.

ورغم أن أهلي الجدد هؤلاء كلهم شجعان مقدامون؛ يطاردون فرائسهم بقوة وسرعة؛ إلا أن شجاعتي وسرعتي في ذلك تفوقهم جميعاً:

6. وكلٌّ أبيٌّ باسلٌ غير أنني إذا عرضت أولى الطرائدِ أبسلُ[1]

ولست باسلاً فحسب، بل كريم عفيف كذلك: إذ لا أبادر الجشعين بالهجوم على الزاد، بل أدعهم وجشعهم، لأني الأفضل، وشيمتي التفضل على الآخرين:

7. وإن مدتْ الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجْشَعُ القومِ أعجل[2]
8. وما ذاك إلا بَسْطَةٌ عن تفضلٍ عَلَيهِم وكان الأفضلَ المتفضِّلُ

ثم يتعزى الشنفرى عن فراق من لا يشبهونه بصحبة ثلاثة: قلب يقوم في شجاعته مقام الأشياع، وسيف مصلت مستعد للقتل لدى ظهور أي خطر، وقوس طويلة العنق:

9. وإني كفاني فَقْدُ من ليس جازياً بِحُسنى، ولا في قربه مُتَعَلَّلُ[3]
10. ثلاثةُ أصحابٍ: فؤادٌ مشيعٌ وأبيضُ إصليتٌ وصفراءُ عيطلُ[4]

ثم ينتقل إلى تصوير القوس، فيقول: إنها ملساء قوية مرصعة بالحلي، تهتف حين تنزع بالسهم، كامرأة ثكلى تولول على فقيدها:

---

[1]- أبسل: أكثر بسالة.

[2]- أجشع: تفضيل من جشع.

[3]- متعلل: فضيلة أتعلل بها.

[4]- مشيع: ينوب مكان الجماعة. إصليت: منوع من غمده. عيطل: طويلة العنق.

11. هَتوفٌ من المُلْسِ المُتُونِ يزينها رصائعُ قد نيطت إليها ومِحْمَلُ
12. إذا زلّ عنها السهمُ حَنَّتْ كأنها مُرَزَّأةٌ تثكلى ترِنُ وتُعْوِلُ

وبعد أن يصف خصاله الحميدة، ينتقل إلى وصف نفسه بالأبي العنيد الذي، ينقدح الشرر من قدميه، إذا ما وطأتا الصخر، فينكسر الصخر ولا تنكسر:

13. إذا الأمعزُ الصَّوَّان لاقى مناسمي تطاير منهُ قادحٌ ومُفَلَّلُ[1]

وإذا ما تعرضت للجوع، وليس لي ما أتناوله، أماطله حتى يموت، فأنساه، مستعيضاً عن استجداء البخيل باستفاف تراب الأرض، وأطلب الطعام القليل بكرامة ذئب أغبر في الفلاة:

14. أُدِيمُ مِطالَ الجوعِ حتى أُمِيتهُ وأضربُ عنه الذِّكرَ صفحاً فأذهَلُ[2]
15. وأستفُّ تُرب الأرضِ كي لا يرى لهُ عَليَّ من الطَّوْلِ امرُؤٌ مُتطوِّلُ
16. وأغدو على القوتِ الزهيدِ كما غدا أزلُّ تهاداه التَّنائِفُ أطحلُ[3]

ثم ينتقل بعد ذلك الشنفرى ليصور لنا بعضاً من أروع الصور الحية في الصحراء، صورة الذئب الجائع حين يدعو أمثاله من عشيرة الذئاب، فتأتيه مهلهلة

---

[1]- قادح: يقدح الشرر. مفلل: متكسر متبعثر.

[2]- مطال: مماطلة. أذهل: أنسى.

[3]- الأزل: هو الذئب. تهاداه الطنائف: أي تتنقل به المفاوز. أطحل: أغبر، بين البياض والسواد، وهي صفة الذئب.

شيبها الهم وأضعفها الجوع، حتى أصبحت في رقتها وتمايلها مثل سهام تتقلقل في المقامر:

17. فلمَّا لواهُ القُوتُ من حيث أمَّهُ دعا فأجابته نظائرُ نُحَّلُ[1]

18. مُهَلْهَلَةٌ شِيبُ الوجوهِ كأنها قِداحٌ بكفيَّ ياسِرٍ تتَقَلْقَلُ[2]

فلما جاءت الذئاب أخاها الذي ناداها، ضج وضجت معه، في فضاء الصحراء، بالشكوى من شدة الجوع، مثل نساء ثاكلة تنوح على من قتل من أحبابها:

19. فَضَجَّ وضَجَّتْ بِالبَرَاحِ كأنَّها وإياهُ نوْحٌ فوقَ علياء ثُكَّلُ[3]

ثم أطرق الذئب ببصره، وأطرقت معه الذئاب، وقد تأسى كلٌ بكل:

20. وأغضى وأغضتْ واتسى واتَّستْ بهِ مَرَاميلُ عَزَّاها وعَزَّتهُ مُرْمِلُ[4]

فكان من هذه المواساة الحيوانية، أن شكا الذئب لأصحابه، فشكوا له من مثل ما شكى منه، فصبر وصبروا بصبره، وكف عن الشكوى وكفوا معه، ثم عاد

---

[1]- لواه القوت: أعجزه طلب الطعام. من حيث أّمه: في المكان الذي قصده. نظائر: مثيلات. نحل: ناحلة.

[2]- قداح: أسهم القمار. ياسر: هو المقامر.

[3]- بالبراح: بالفضاء الواسع. نوح: نائحات. علياء: المكان المرتفع. ثكل: جمع ثكلى.

[4]- أغضى: أطرق جفونه. ومراميل: مفردها مرمل وهو من فقد الزاد.

كلٌ إلى مكانه، كاتماً شكواه، مغالباً جوعه، في تجمل يأبى أن يظهر للأعداء ما يشمتوا به:

21. شَكا وشكَتْ ثم ارعوى بعدُ وارعوتْ ولَلصَّبرُ إن لم ينفع الشكوُ أجملُ[1]

22. وَفَاءَ وفاءتْ بادِراتٍ وكُلُّها على نَكَظٍ مِمَّا يُكاتِمُ مُجْمِلُ[2]

وبعد أن يختتم الشنفرى تصويره لجماعة الذئاب، يتوجه إلى ذكر الحرب التي ابتعد عنها في الآونة الأخيرة، فيقول:

23. فإن تبتئس بالشنفرى أم قسطلٍ لَما اغتبطت بالشنفرى قبلُ أطولُ[3]

فعلى الحرب ألا تحزن من غيابي المؤقت عنها، فلطالما فرحت بي من قبل، ويا لكثرة ما ستفرح بي من بعد[4].

تم الكتاب بحمد الله

---

[1]- ارعوى: كف.

[2]- على نكظ: النكظ هو الضيق والشدة، أي برغم الضيق والشدة.

[3]- القسطل: هو الغبار. وأم قسطل: هي الحرب، لأنها تثير الكثير منه.

[4]- انظر: عبد الحليم حفني. شرح لامية العرب للشنفرى. ص8-24.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب:

*** القرآن الكريم.**

1. ابن الأثير الجزري: الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد. جامع الأصول في أحاديث الرسول. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. مكتبة الحلواني ومطبعة الملاح ومكتبة دار البيان. بيروت. 1972.

2. ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. مقدمة ابن خلدون. ط6. دار القلم. بيروت. 1986

3. ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم. الشعر والشعراء. تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر. سلسلة ذخائر العرب. دار المعارف. القاهرة. دون تاريخ.

4. ابن كثير: الحافظ أبو الفدا. البداية والنهاية. دار الفكر. بيروت. 1978

5. ابن منظور: العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب. ط1. دار الفكر. بيروت. 1990

6. ابن هشام: أبو محمد عبد الملك. السيرة النبوية (سيرة ابن هشام). مراجعة محمد بيومي. ط1. مكتبة الإيمان. المنصورة. .1995

7. أبو زيد القرشي: محمد بن أبي الخطاب. جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام. تحقيق علي محمد البجاوي. دار نهضة مصر. القاهرة. دون تاريخ.

8. أبو عبيدة: معمر بن المثنى. أيام العرب قبل الإسلام. جمع وتحقيق ودراسة عادل جاسم البياتي. ط1. عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية. بيروت. 1987

9. الأصمعي: عبد الملك بن قريب. ديوان الأصمعي (الأصمعيات). تقديم وشرح وتعليق محمد حمود. ط1. دار الفكر اللبناني. بيروت. 1998

10. امرؤ القيس. ديوان امرئ القيس. اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي. ط2. دار المعرفة. بيروت. .2004

11. البخاري: الإمام المحدث محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح (صحيح البخاري). ط1. تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة. بيروت. 1422هـ

12. جامعة القدس المفتوحة. مصادر الدراسة الأدبية واللغوية. 2007

13. جلال الدين السيوطي. المزهر في علوم اللغة وأنواعها. شرح وتعليق محمد أحمد جاد ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي. ط3. مكتبة التراث. القاهرة. دون تاريخ.

14. جورج سانتيانا. الإحساس بالجمال: تخطيط النظرية في علم الجمال. ترجمة محمد مصطفى بدوي. مراجعة وتقديم زكي نجيب محمود. مهرجان القراءة للجميع. أمهات الكتب. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب 2002

15. جيرار جينيت. مدخل إلى النص الجامع: بحث في المنهج. ترجمة عبد العزيز شبيل. مراجعة حمادي صمود. القاهرة. المشروع القومي للترجمة. المجلس الأعلى للثقافة. 1999

16. حنا فاخوري. الجامع في تاريخ الأدب العربي. ط1. دار الجيل. بيروت. 1986

17. الخالديان: أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم. كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين. تحقيق السيد محمد يوسف. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. 1965

18. الخطيب التبريزي: الشيخ أبو زكريا يحي بن علي. شرح القصائد العشر. تحقيق فخر الدين قباوة. ط4. دار الآفاق الجديدة. 1980

19. الزوزني: القاضي أبو عبد الله الحسين بن أحمد. شرح المعلقات السبع. ط2. دار المعرفة. بيروت. 2004

20. السهيلي: الإمام المحدث عبد الرحمن. الروض الآنف في شرح السية النبوية لابن هشام ومعه السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق وشرح وتعليق عبد الرحمن الوكيل. ط1. الناشر رضا توفيق عفيفي. القاهرة. 1967

21. شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي. العصر الإسلامي. ط6. دار المعارف. القاهرة. دون تاريخ.

22. شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي. العصر الجاهلي. ط7. دار المعارف. القاهرة. دون تاريخ.

23. الطيبي: الإمام شرف الدين. البيان في التبيان. (جزء من رسالة دكتوراه للطالب عبد الستار حسين مبروك زموط. إشراف الدكتور كامل إمام الخولي). جامعة الأزهر. 1977

24. طه حسين. النص الكامل لكتاب: في الشعر الجاهلي. مجلة القاهرة (عدد خاص). العدد149. أبريل1995

25. عبد الحليم حفني. شرح لامية العرب للشنفرى. مكتبة الآداب. القاهرة. 1999

26. عبد السلام هارون. تهذيب سيرة ابن هشام. ط10. مؤسسة الرسالة ودار البحوث العلمية. بيروت والكويت. .1984

27. كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. أشرف على الترجمة محمود فهمي حجازي. الهيئة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمصرية العامة للكتاب. القاهرة. 1993

28. مجموعة من المؤلفين. المنجد في اللغة والأعلام. ط28. دار المشرق. بيروت. 1986

29. مجموعة من المؤلفين. دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي. ترجمها عن الألمانية والإنجليزية والفرنسية الدكتور عبد الرحمن بدوي. ط1. دار العلم للملايين. بيروت. .1979

30. محمد بن سلام الجمحي. طبقات فحول الشعراء. قرأه وشرحه محمود محمد شاكر. دار المدني. جدة. دون تاريخ.

31. مصطفى صادق الرافعي. تاريخ آداب العرب. ط1. مكتبة الإيمان. المنصورة. 1997

32. المفضل الضبي. المفضليات. سلسلة ديوان العرب. تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون. ط8. دار المعارف. القاهرة. دون تاريخ.

33. الميداني: أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري. مجمع الأمثال. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. دار القلم. بيروت. دون تاريخ.

34. نورثروب فراي. تشريح النقد. ترجمة وتقديم محيي الدين صبحي. الدار العربية للكتاب. طرابلس الغرب. 1991

ثانياً: مواقع الشبكة العنكبوتية: إنترنت:

الموسوعة العالمية للشعر العربي. 2011/10/18. الرابطان:

http://www.adab.com/modules.php?name=Sh3er&doWhat=shqas&qid=26443&r=&rc=9

http://www.adab.com/modules.php?name=Sh3er&doWhat=shqas&qid=26442&r=&rc=8

الفهرس

مسلسل	الموضوع	الصفحة
1	الإهداء	5
2	الفصل الأول: الجزيرة العربية قبل الإسلام	7
3	أولاً: الموقع الجغرافي	7
4	ثانياً: العرب العاربة والعرب المستعربة	8
5	ثالثاً: أسطورة الأصل	12
6	رابعاً: الجاهلية جاهليتان	13
7	خامساً: زمن الجاهلية الذي نعنيه	14
8	سادساً: الجاهلية الكتابية	14
9	سابعاً: ممالك الأطراف	21
10	سابعاً.1: ممالك الجاهلية الأولى	21
11	سابعاً.2: ممالك الجاهلية المتأخرة	27
12	ثامناً: قبيلة قريش والبيت الحرام	28
13	تاسعاً: حادثة الفيل	31
14	الفصل الثاني: في الشعر الجاهلي5	35
15	أولاً: في قضية الانتحال	35
16	ثانياً: في أولية الشعر	39
17	رابعاً: في غنائية الشعر الجاهلي	43
18	رابعاً.1: تمهيد	43
19	رابعاً.2: في تاريخ المصطلح	45
20	رابعاً.3: الشعر الجاهلي غنائي كله	46
21	الفصل الثالث: النصوص النثرية	49
22	أولاً: في قلة النصوص النثرية الجاهلية	49

مسلسل	الموضوع	الصفحة
23	ثانياً: نماذج من النصوص النثرية الجاهلية	50
24	ثانياً.1: شق وسطيح يتنبآن بظهور النبي الخاتم	50
25	ثانياً.2: حفر زمزم	53
26	ثانياً.3: الخطابة	55
27	ثانياً.4: الأمثال والحكم	56
28	ثانياً.4/أ: تعريف المثل	56
29	ثانياً.4/ب: تعريف الحكمة	57
30	ثانياً.4/ج: الخلاصة	57
31	ثانياً.4/د: أمثال العرب وحكمهم في الجاهلية	57
32	ثانياً.4/هـ: بعض حكماء الجاهلية	58
33	ثانياً.4/هـ*: لقمان الحكيم	58
34	ثانياً.4/هـ**: أكثم بن صيفي	61
35	ثانياً.5: أيام العرب	62
36	ثانياً.5/أ: تمهيد	62
37	ثانياً.5/ب: حرب البسوس	64
38	ثانياً.5/ج: يوم ذي قار	68
39	ثانياً.5/ج*: المعركة	68
40	ثانياً.5/ج**: قصيدة الأعشى في يوم ذي قار	71
41	ثانياً.5/ج**(أ): الشاعر	71
42	ثانياً.5/ج**(ب): القصيدة	73
43	الفصل الرابع: المعلقات	77
44	أولاً: سبب التسمية	77
45	ثانياً: هوية المعلقات وعددها	78
46	ثانياً.1: معلقة امرئ القيس	81

مسلسل	الموضوع	الصفحة
47	ثانياً.1/أ: الشاعر	81
48	ثانياً.1/ب: المعلقة	83
49	ثانياً.2: معلقة عمرو بن كلثوم	88
50	ثانياً.2/أ: الشاعر	88
51	ثانياً.2/ب: المعلقة	89
52	ثانياً.3: معلقة زهير بن أبي سلمى	98
53	ثانياً.3/أ: الشاعر	98
54	ثانياً.3/ب: مكانة زهير بين الشعراء	99
55	ثانياً.3/ج: المعلقة	100
56	ثانياً.3/ج*: مناسبة القصيدة	100
57	ثانياً.3/ج**: مناسبة القصيدة	101
58	الفصل الخامس: مختارات من الروائع	107
59	أولاً: الغزل ووصف النساء	107
60	أولاً.1: المنخّل اليشكري	108
61	أولاً.1/أ: الشاعر	108
62	أولاً.1/ب: القصيدة	109
63	أولا.2: المُثَقِّب العبدي	110
64	أولاً.2/أ: الشاعر	110
65	أولاً.2/ب: القصيدة	111
66	ثانياً: شعر الصعاليك	117
67	ثانياً.1: تمهيد	117
68	ثانياً.2: الشنفرى الأزدي	120
69	ثانياً. 2/أ: الشاعر	120
70	ثانياً. 2/ب: القصيدة	121